

هذه الرواية

- قصة غجري جاء به رب عائلة الى بيته لقيطاً ، فاستطاع أن يحطم حيـاة تلك العائلة ، وسيطر على ممتلكاتها ، وتحكم بمصائر افرادها جميعاً .
- حقد شديد يولده سوء المعاملة التي لقيها هذا الغجري ، فلا يعود يحفل بالوسيلة التي تمكنه من الانتقام . غير أن وراء قساوته وعنفوانه نفساً معذبة حطمها حب عظيم .
- حوادث متلاحقة تمتد على جيلين . . تنطوي على أشد العواطف الانسانية تناقضاً ، في قالب من التشويق ساحر .
- اقرأ هذه الرواية ، إن كنت لم تقرأها بعد ، وستجد نفسك مشدوداً إليها من الغلاف الى الغلاف .

المكتبة العالميّة
للفتيان والفتيات

مُرتفعاتُ وذَرِنغ

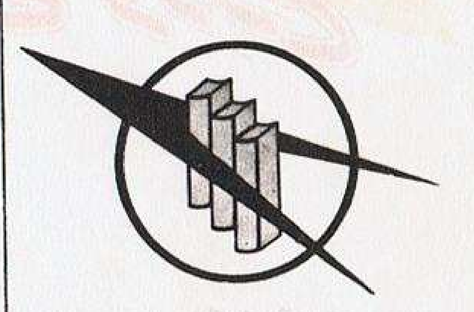
تأليف
إميلي برونتي

تعريب وتلخيص
رمزي البعلبكي

دار العلم للملايين

ص.ب ١٠٨٥ - بيروت
تلفون: ٢٢٤٥٠٢ - ٢٩١٠٢٧

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٥٥ - ٨١٦٦٣٩
برقيا: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان



الطبعة الاولى ١٩٧٤
الطبعة الثامنة
حزيران (يونيو) ١٩٨٦

المقدِمة

يرويها السيّد لوكوود، مستأجِر «ثراشكروس جرانج».

(١)

رَجَعْتُ لِتَوِّي من زيارةٍ لمالكِ الدّارِ التي استأجرتُها، وهو جاري الوحيدُ لمسافةِ اميالٍ؛ فقدْ كان بيتي الريفي مُنعزلا عن المجتمعِ تماماً.

كنا، انا والسيدُ هيثكليف، ملائمين لتقاسُمِ فَراغِنا. ولما جئتُه كانَ ينظرُ بعينينِ ملؤهُما الشكُّ. سألتُه إن كانَ هو السيد «هيثكليف» فأجابني بإيماءةٍ من رأسه فقلتُ: «سيِّدي، انا السيد لوكوود، المستأجِرُ الجديدُ للمنزلِ، وها أنا ذا أتشرفُ بالمجيءِ اليكَ في اولِ فُرْصَةٍ سَنَحَتْ».

أذِنَ لي بالدخولِ، وكان يتّكِىءُ على البوّابةِ الخارجيّةِ. ولما رأى حصاني يضربُ بصدره على هذه البوابّة، حَلَّ وثاقَهُ وطلبَ من خادمِه، واسمُه «جوزيف»، أن يهتمّ به وأن يأتِينا بشيءٍ من الخمر.

كان اسمُ المنزلِ « مرتفعات وذرنج » . ولفظةُ « وذرنج » تشيرُ إلى قساوة المُناخِ ايّامَ العواصفِ في هذا القسمِ المنعزل من « يوركشاير » في شمالي انكلترا ؛ فقد كانت ريحُ الشمالِ تعْصِفُ بهذا المنزلِ القويِّ البناء وبالاشجارِ المحيطةِ بـه ، المتشوِّقة الى حرارةِ الشمس .

تأمّلتُ مدخلَ المنزلِ وقد حُفِر عليه اسمُ « هيرتون ارنشو » وتاريخُ « ١٥٠٠ » وكنت أودُّ أن استعلمَ عن بعض تفاصيلِ المنزل ، لكن صاحبَه كان يبدو نافدَ الصبْر .

ثم دخلنا غرفةَ الجلوسِ وكان فيها صفٌّ من الصحونِ والأواني والاباريقِ يعلو حتى سقفِها . وكان هنالك عددٌ من المُسدّسات والبنادقِ فوقَ المُستَوْقَد . وفي احدى الزّوايا قبَعَتْ كلبةٌ مع صغارِها . وتوزّعَ الزوايا الأخرى كلابٌ أُخَر .

كان السيّد « هيثكليف » غجرياً أسمرَ ذا تصرّفٍ لائقٍ ومظهرٍ حسنٍ ، غير أنّه كان يبدو مُهملاً وسيّىءَ الطبع .

جلستُ قربَ النـارِ واخذتُ أُداعبَ الكلبةَ ، فنهاني « هيثكليف » عن ذلك بعنف، ودفع الكلبةَ برجله ثم نـادى خادمَه « جوزيف » فسمعتُ تمتماته دون أن يحضر ، فنزل اليه « هيثكليف » تاركـاً ايّايَ مع الكـلاب التي كانت تراقبُ حركاتي كلَّها . أزعجتني هذه الحيواناتُ ، وأظهرْتُ لها ذلك إذ دفعتُ بعيداً بالكلبةِ التي كانت جاثمةً عند ركبتي ووضعتُ الطاولةَ بيني وبينها ، فلم يَرُقْ هذا للكلابِ الثلاثة فأحاطت بي . أطلقتُ عند ذلك نداءَ الاستغاثةِ فلم يُجبني « هيثكليف »

او خادمُه . وصادف مرورُ امرأةٍ بدينةٍ من المطبخ فأبعدَتِ الكلابَ عني بمقلاة كانت معها .

ثم دخل « هيثكليف » مستفسراً وقال :

— « لا تتعرّضُ هذه الكلابُ لمن لا يلمسُ شيئاً في الغرفة . على الكلابِ أن تكونَ يقِظَةً ... هل تشربُ كأساً من خمر؟ »

— « لا ، شكراً . »

— « وهل عضتْكَ الكلاب ؟ »

— « لو عضّني أحدها لظهر عليه هوَ أثرُ ذلك . »

ضحكَ هيثكليف وقال : « هيا ، تناولِ الكأسَ يا سيد « لوكوود » . من النادرِ أن يجيئنا ضيوفٌ في هذا البيتِ ، حتى إني وكِلابي لا نكادُ نعرفُ كيف نُحْسِنُ استقبالَهم » .

لعله ما كان يجب أن أغضَبَ بسببِ هذه الكلابِ ، كما انني لم أُردْ أن أفقدَ اعصابي أمامَ صاحبِ البيت ، فيسخر مني . ولعله أدركَ خطورةَ الفظاظةِ مع مستأجرٍ جيِّد ، فأخذ يحدّثني بتهذيبٍ اكبر ... لمستُ فيه الذكاء وكنت أودُّ أن أزورَه مجدّداً ، غير أنه لم يُظهر اهتماماً برفقتي ؛ ولكني مع ذلك ، قرّرت ان ازوره في اليوم التالي .

(٢)

كان الجوُّ بعد ظُهرِ امسِ كثيرَ الغيومِ وشديدَ البرد . وقد كنتُ افكّر في قضاءِ الوقتِ بجانب المدفأة في مكتبي ، غير أني اعتزمتُ الذّهابَ الى « هيثكليف » ، فوصلتُ بعد مسيرِ اربعةِ

اميال في البرد القارس . قرعتُ البابَ فأخذتِ الكلابُ تنبحُ ، ثم قرعتُه ثانيةً فأطلّ « جوزيف » بوجههِ الكريهِ من النافذة صارخاً :

— « ماذا تريدُ ؟ سيدي في الحقل . »

— « أليس من أحدٍ يفتحُ لي البابَ ؟ »

— « لا يوجد سوى سيّدتي ، ولن تفتحَ لك البابَ ولو بقيتَ تصرخُ حتى هبوطِ الليل . »

— « لماذا ؟ ألا تخبرها من انا ؟! »

— « ليس هذا من شأني . »

ثم اختفى رأسه ...

أخذ الثلجُ يَسْقطُ بكثافة ، وكنتُ على وشك أن أقرعَ البابَ للمرّة الثالثة حين أطلّ شابٌ يرتدي معطفاً ، وبيدهِ مِجراف ، فأشارَ إليّ بأن اتبعَه ففعلت ، ووصلنا إلى الغرفة الدافئة الكبيرة التي استُقبلْتُ فيها سابقاً .

كانت « السيدةُ » في الغرفة ، فانحنيتُ لها معتقداً أنها ستدعوني إلى الجلوسِ ، ولكنها أخذتْ تنظرُ اليّ ولم تتحركْ ولم تنبسْ ببنتِ شفة ، فقلتُ : « الجوُّ قاسٍ .. لقد عانيتُ كثيراً ، يا سيدة هيثكليف ، حتى سمعَ خادمُكِ صوتي » .

فلم تتكلّم مُطلَقاً ، وظلّت تنظرُ إليّ ببرودةٍ مزعجةٍ . ثم قالَ لي الشابُ : « إجلسْ .. سيكون هنا بعدَ قليل » .

لبّيتُ دعوتَه وجلست . وجاء احدُ الكلاب نحوي بطريقة افضلَ من المرة الماضية فقلت : « حيوانٌ جميل .. هل تعتزمين

الاحتفاظ بصغارهِ يا سيّدتي ؟ » فقالت مضيفتي بفظاظةٍ تفوق فظاظةَ هيثكليف : « ليست هذه الحيواناتُ لي » .

ثم كرّرت ملاحظتي حول الجوّ القاسي ، فقالتِ السيّدةُ :

« كان يجب الا تغادرَ منزلك » .

وقامت من مكانها لتأخذَ علبتَيْنِ من الشّايِ ، فاستطعت أن أتبيّنَ ملامحَها بوضوح . بَدَتْ صغيرةَ السّنّ ، لاتكادُ تتجاوزُ مرحلةَ المراهَقة ؛ وكانت جميلةَ المظهرِ ذاتَ وجه لم أرَ وجهاً يعدلُه جمالاً في حياتي .

كانت علبتا الشاي بعيدتين عن متناولها ، فتحرّكتُ محاولاً مساعدتَها ، فاستدارت وقالت بعنف : « لا اريدُ مساعدتك لي » ، فأسرعتُ بالاعتذار ، فسألتني وهي تَهُمُّ بوضع شيء من الشّاي في الابريق : « هل دُعيتَ لشرب الشاي ؟ » فأجبتها : « كلا .. لكنكِ الشخصُ المناسبُ لدعوتي إليه » ، فألقتِ الشاي والملعقة ، ورجعتْ إلى مقعدِها ، وكأنّها طفلٌ يهمُّ بالبكاء .

أما الشابُّ الذي كان يرتدي معطفاً ، فكان يرميني بنظرات شرسة ، فبدأت أشكُّ في كونه خادماً . ففي حينَ كان لباسُه وكلامُه فظّين ، وشعرُه طويلاً ، ويداه سمراوينِ بسبب العمل ، كانت تصرّفاته تدلُّ على التكبّر ، كما لم يَظْهَرْ منه احترامُ خادمٍ لسيّدته .

وبعد خمسِ دقائقَ وصل هيثكليف وقال لي وهو يزيلُ الثلجَ عن ملابسه :

— « أعجبُ لاختياركَ هذا اليومَ المُثلِجَ لزيارتي ..

أتعلمُ أنـك تُعرّضُ نفسكَ لخطرِ الضّياع ؟ إنّ الذين يعرفونَ هذه المستنقعاتِ حقَّ المعرفةِ كثيراً ما يتيهونَ في ليلةٍ كهـذه . »

— « لعلَّ في إمكانكِ أن تؤمّنَ لي دليلاً يهديني السبيل . »

— « لا .. لا اقدر » .

ثم سأل الشابُّ السيّدةَ : « وهل ستعدّين الشاي »؟ فأجابت « وهل سيتناولُ هو بعض الشـايِ ؟ » فصاح « هيثكليف » بشراسة أجفلتني : « هيّا !! حضّريه ! » .

ثمّ دعاني لأدْنوَ منهم ، فالتففنا جميعاً حولَ المائدةِ لنتناولَ الطعامَ ، دون أن ينطقَ أحدٌ منّا بكلمة .

اعتبرتُ نفسي مسؤولاً عن ذلك الجوِّ القاتم ، إذ لا يُعقلُ أنّهم كانوا دائماً يجلسون في جو رهيب صامت كهذا ؛ فأردتُ أن أقطعَ حبلَ الصّمت ، فقلت : «كثيرٌ من النّاسِ لا يتصوّرُ السعادةَ في منأى كهذا عن المجتمع . أما أنتَ يا سيّد هيثكليف مع زوجتك وعائلتك ... »

وهنا قاطعني قائلاً : « زوجتي لم تعد على قيـد الحياة يا سيّدي » ، فانتبهت الى الخطأ الذي ارتكبتهُ ، ثم قال هيثكليف ، وهو ينظرُ الى السيّدة نظرة كراهيـة :

— « إن السيدة هيثكليف هي زوجة ابني . »

— « وهذا الشاب ؟ »

— « هو ليس ابني ... لقد مات ابني . »

فأحمرّت وجنتا الشاب وقال بغضب : « اسمي هيرتون

ارنشو .. وأنصحك باحترام هذا الاسم » .

بدأتُ أشعرُ بشدةِ غرابتي عن هذه العائلة وقررت الاحتراز في تصرّفاتي .

ولما أنهينا تناولَ طعامِ العشاء ، اقتربت من النافذة لأتأمّلَ هبوط الليل في غمرة الريحِ والثلوجِ ثم قلتُ : « لا أظن انه يمكنني الرّجوعُ الى بيتي من غير دليل » . ثم تلفّتُّ فلم أرَ الا « جوزيف » والسيّدة هيثكليف ، فقلت لها صادقاً :

— « اعذريني يا سيّدة « هيثكليف » على إزعاجي لكِ .. هل لكِ ان تشيري الى بعضِ معالمِ الطريقِ فأسلكَها إلى بيتي راجعـاً ؟ »

— « ارجـع من الطريق الذي أتيتَ منـه .. ليس في استطاعتي أن أرشدَك ، فهم لا يسمحونَ لي باجتياز حائط الحديقـة . »

— « أوَليسَ هنالك صبيانٌ من الخدم هنا ؟ »

— « كلا ، لايوجد إلاّي و« هيثكليف » و« أرنشو » و«زيلا » و « جوزيف » .

وهنا تناهى الى سمعي من المطبـخِ صوتُ هيثكليف يقول :

— « فليكن هذا لك عبرةً ، فلا تعاودْ مثلَ هذه الرحلةِ الخطرةِ .. ليس عندي من غرفٍ للضّيوف ، فقاسِمْ هيرتون أو جوزيف فراشَهُ »

— « في استطاعتي النومُ على كرسيٍّ ما في هذه الغرفة . »

— «كلا.. فالغريب يظلُّ غريباً، سواء أكانَ غنياً أم فقيراً.
وليس لأحدٍ أن يحومَ في هذا المكانِ عندما لا أكونُ مُراقِباً
إيـاه.»

وعند هذا الحدِّ من الإهانة نفدَ صبري، فاتّجهتُ إلى فِناءِ الدّار، وأخذتُ مصباحَ «جوزيف» واعداً بإرجاعه في اليوم التالي، فصاحَ جوزيف: «سيّدي! سيّدي! لقد سَرقَ المصباح. أمسكيه أيّتها الكلاب!» فقفز اثنانِ من الكلاب وأنزلاني الى الارض مُمسكَيْن برقبتي. وزادتْ حنقي وشعوري بالذلِّ ضَحكاتُ «هيثكليف» و«هيرتون»، فاضطررتُ للجوءِ إلى الكَذِبِ، حتى أمرا الكلابَ بتركي.

سبّبَت لي قوّة مشاعري وحِدّتُها نَزْفاً في أنفي. وظلَّ «هيثكليف» يضحك، وعندها قالت «زيلاّ»، وهي المرأةُ البدينةُ التي رأيتُها سابقاً: «هل سنقتلُ الناسَ على عَتَبَةِ بيتِنا؟ أنظرا إلى هذا الشابِّ المسكينِ وكأنّه مُحكَمُ الرّباط. أُدخل!! أنا سأهتمّ بعلاجك».

وضعتْ «زيلاّ» ماءً مثلجاً على رقبتي، وسقتني، بطلب من هيثكليف، مشروباً حاراً تحسّنت حالتي على أثر تناوله ثمّ سمحتُ لها بإيصالي إلى الفراش.

(٣)

أوصتني «زيلا»، ونحنُ نصعدَ الدَّرجَ، أن لا تَصْدُرَ مني جلبةٌ، لأن لسيِّدها نظرةً خاصةً إلى الغرفةِ التي تأخذني

إليها، فهو لا يدعُ أحداً ينزلُ فيها.

اقفلتُ البابَ وتفحّصتُ الغرفة. لم يكن في تلك الغرفة إلا كرسيٌّ واحدٌ، وصندوقٌ للثياب، وخزانةٌ خشبيّةٌ كبيرةٌ تعلوها تقاطيعُ مربّعةٌ كتقاطيع نوافذِ العرباتِ؛ وتبيّنَ لي أن هذه سريرٌ قديمُ الطراز.

وضعتُ الشمعةَ على حافة النافذةِ حيثُ جُمعت بعضُ الكتبِ القديمة، وكانت على حافة النافذة مُخَربَشاتٌ تحمل اسم «كاترين أرنشو»، واحيانـاً «كاترين هيثكليف»، أو «كاترين لينتون».

ثم ارتحتُ خمسَ دقائقَ وإذا بالشمعة تسقطُ على أحـدِ الكُتُبِ وتُحدِثُ رائحةَ احتراق. فتفحّصتُ الكتابَ، فكان انجيلاً كُتِبَ على صفحته الأولى اسمُ «كاترين أرنشو» وتاريخٌ يعودُ إلى ربع قرنٍ خلا.

أخذتُ أفحصُ الكتبَ جميعَها، وكانت كلُّها مستعملةً استعمالاً حسناً، وكان كلُّ بياضٍ فيها مُسَوَّداً بخطِّ طفل. وسرّني عثوري على رسمٍ جيّدٍ لـ«جوزيف» على متنِ صفحة بيضاء. وشعرتُ باهتمامٍ شديدٍ ومجهول بـ«كاترين»، فأخذت أحاولُ قراءةَ الكلمات المطموسة.

«يومُ أحدٍ مُروّع. ليتَ ابي يعيشُ من جديدٍ. إن «هندلي» كريه. تصرّفُه مع «هيثكليف» مُخزٍ.

«انهمر المطرُ طَوالَ هذا اليوم. لم نستطعِ الذهابَ الى الكنيسة. بينما جلس «هندلي» وزوجته بقربِ النارِ في الطابق

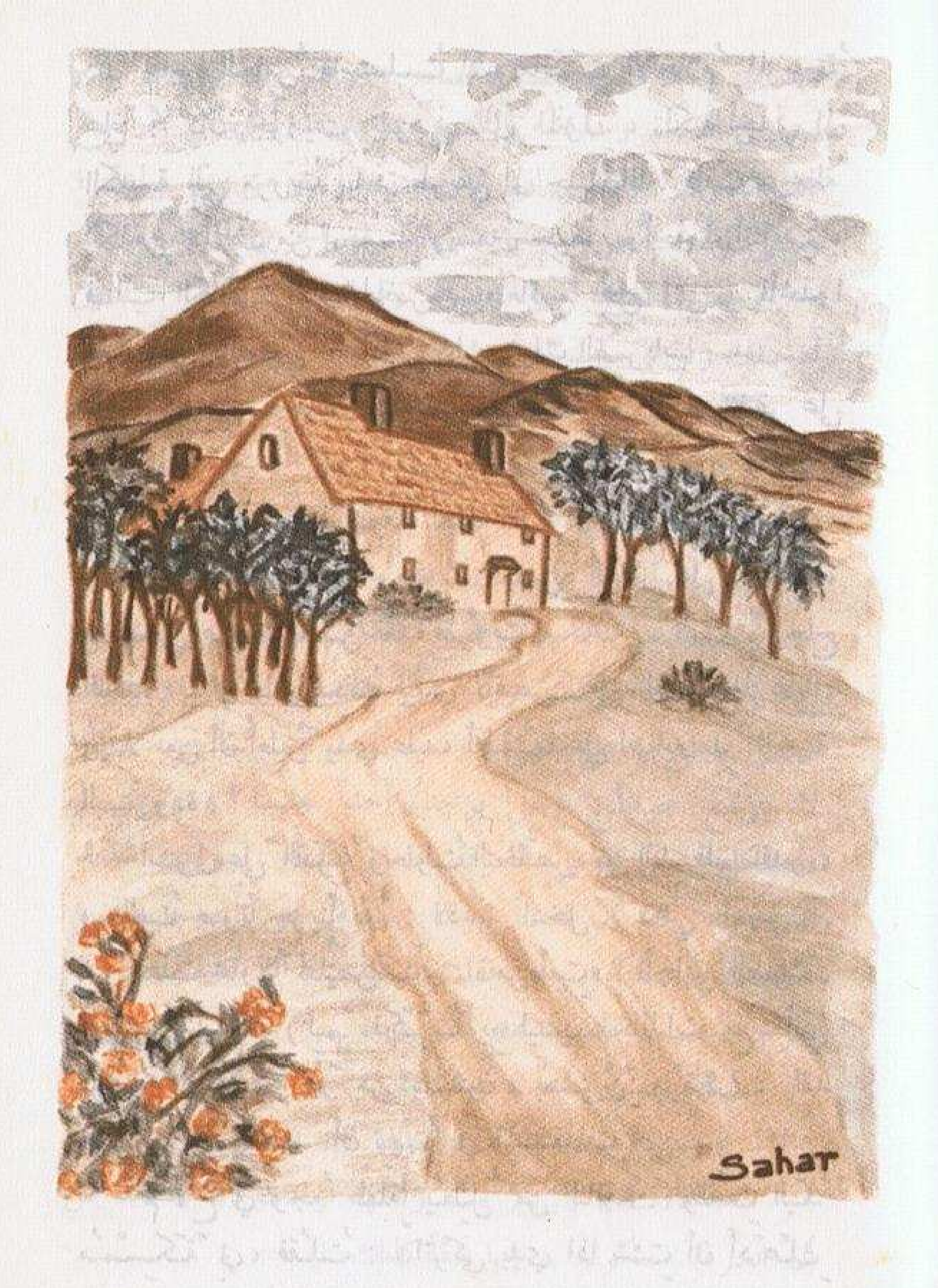
الاسفلِ ، أُمِرْنا أن نأخذَ كُتُبَ الصلاةِ ونصعدَ إلى الطابقِ العلويِّ لنستمعَ إلى صلواتِ « جوزيف » ومواعِظِه . مكثنا في الطابقِ العلويِّ ثلاث ساعات ، ومع ذلك رأى أخي اننـا أسرعنا في النزول .

« قال أخي : تذكـّرا أن لكما سيّداً هنا . سأقتل أوّل من يخرجني عن طوري منكما ... أنت اذاً .. يا « فرانسيس» اضربي الصبي .

« ضربَتْهُ فرانسيس ثم أطالتِ الجلوسَ مـع زوجِها وكأنهما طفلانِ يتكلمانِ كلاماً تافهاً . عثرتُ على دواةِ حبرٍ فأتيتُ إلى هنا وكتبتُ طوالَ عشرينَ دقيقة . أما رفيقي فقد نَفِدَ صبره واقترح عليّ أن نأخذَ عباءةَ الخادمةِ وننطلقَ إلى الخارجِ ، إذ لا يمكنُ أن نشعرَ بالبردِ في الخارجِ اكثرَ مما نشعرُ به هنـا ».

وأظنهما ذهبا الى الخارجِ ، لأن الجملةَ اللاحقةَ تتناول موضوعاً مختلفـاً :

« ما كنت احسبُ « هندلي » ليجعلني ابكي هكذا . اشعرُ بألمٍ في رأسي لا استطيعُ معه أن أضعَ رأسي على الوسادة . مسكينٌ هو « هيثكليف » . يسميه « هندلي » غجرياً ، ولم يعدْ يسمحُ له بالجلوسِ معنا أو تناولِ الطعامِ معنا . يقولُ اخي انه يجب الا نلعبَ انا و « هيثكليف » معاً، وإن عصيتُ امرَه ، طردهُ من البيت. كان اخي يلومُ والدي على معاملتِه الرقيقةِ لـ « هيثكليف » ويقسمُ انه سيعيده إلى المركزِ المناسبِ له ».



غلبني النعاس فاستسلمت له وتعاقبت الاحلام المزعجة عليّ: كان جوزيف يقودني الى المنزل، لكنه أخذني إلى الكنيسة التي مررت بها في طريقي الى حيث انا. كانت موعظة الكاهن تتألف من اربعمئة وتسعين جزءاً. وأخذت أتثاءب، فطلب الكاهن من الحاضرين معاقبتي على إثمي، فأخذوا يضربونني بالعصيّ، فأفقت على صوت الضربات.

وكان سبب هذه الضجة غصن شجرة انكسر فنقر على النافذة.

ثم نمت، وتذكرت هذه المرة المكان الذي أنا فيه، وسمعت صوت الريح وصوت الغصن الناقر على النافذة، فأزعجني صوت الغصن هذا فقررت إسكاته.. كسرت زجاج النافذة بيدي، ومددت يدي لأقبض على الغصن المزعج، وبدلاً من أن أطبق يدي عليه، أطبقتها على اصابع يد ثلجية البرودة.

استولى عليّ الفزع وحاولت التخلص من اليد فلم اقدر، وسمعت صوتاً حزيناً يئنّ: «دعني ادخل.. دعني ادخل». فقلت محاولاً تخليص يدي: «من أنت»؟ فأجابني الصوت: «كاترين لينتون (لِمَ فكّرت بـ«لينتون» بالذات مع أنني قرأت «أرنشو» أكثر من «لينتون» بعشرين مرّة؟)، لقد جئت إلى البيت بعد أن تهت في المستنقعات».

ثم لاح لي وجه طفلة يطلّ من النافذة. وظلّت اليد ممسكة بي، فقلت: «اتركي يدي اذا شئت أن أدعك

تدخلين». فانحلّت قبضة الأصابع، واسرعت بإدخال يدي من شق النافذة وسددته بالكتب، وسددت أذني كي لا اسمع ذلك الصوت. وبدا لي انني قد سددتها اكثر من ربع ساعة؛ ولكنني لما أنصت من جديد، تناهى الصراخ الحزين إلى أذنيّ ثانية.

وجعلني الهلع أصرخ بشدة وقساوة: «إذهبي، لن أدخلك ولو توسلت إليّ عشرين عاماً».

فقال الصوت لي: «لقد بقيت تائهة شريدة عشرين عاماً».

ثم سمعت صوت خدش ينبعث من الخارج، وصارت الكتب تتحرك كأن شيئاً خلفها يدفعها. وحاولت أن أقفز، فوجدتني غير قادر على ذلك، فصرخت مروّعاً واستيقظت.

ودنا من الباب وقع اقدام سريعة. وفتح الباب بقوّة، وتبيّنت نوراً، وأنا جالس ارتجف واجفف قطرات العرق على جبيني. وسمعت صوتاً متمتماً يقول وكأنه لا يتوقع جواباً: «هل يوجد أحد هنا؟» وتبيّن لي «هيثكليف» في مدخل الغرفة حاملاً قنديله، ووجهه شديد الشحوب. فما إن قمت بحركة بسيطة حتى أصيب بالفزع فسقطت الشمعة من يده، فقلت عندئذ: «انا ضيفك. وقد صرخت بسبب حلم مزعج ألمّ بي».

سمعته يتمتم شاتماً. ثم قال لي:

ـ «ومن ارسلك إلى هذه الغرفة؟»

ـ «خادمتك «زيلا».. ولعلها أرادت أن تتأكد من أنّ الغرفة مسكونة.. إنها حقاً كذلك.»

— « وماذا تعني ؟ لا شيء يبرر صراخك المزعج . »

— « لو أن ذلك الشبح استطاع الدخول لقتلتني صاحبته . أما كاترين فقد اخبرتني انها ظلت مشردة عشرين عاماً . »

فصرخ السيد « هيثكليف » : « كيف تجرؤ على مخاطبتي هكذا وانت في بيتي ؟ » فهممت بارتداء ملابسي ، ولاحظت أن « هيثكليف » الذي جلس على حافة السرير كان يعاني من صراع شعوري مرير ، فقال بعد صمت : « يا سيد لوكوود . يمكنك الذهاب إلى غرفتي ، فقد أفسد علي صراخك نومي هذه الليلة » .

قلت انني سأتجول في فناء الدار حتى الفجر ، ومن ثم أنطلق عائداً . وتركت الغرفة ثم تذكرت أن علي أن أسأل هيثكليف عن الطريق المؤدي إلى الطابق السفلي ، فاستدرت وإذا بي أراه يفتح النافذة وينفجر بالبكاء ويقول : « ادخلي . . ! ! ادخلي يا « كاتي » .. آه يا حبيبة قلبي .. اسمعيني للمرة الأخيرة ! »

لم تبدُ اية حركة من الشبح ، غير أن الثلج والريح عصفا بالغرفة . وهنا بدأت أشعر بالشفقة على « هيثكليف » ، فنزلت إلى الطابق السفلي ومكثت بجانب النار حتى بزوغ الفجر ، ثم انطلقت بعد أن شهدت تعنيف السيد « هيثكليف » لكل من « زيلا » وزوجة ابنه .

وما كدت أصل الى الحديقة حتى لحق بي يريد ارشادي في طريق المستنقعات ، ولما وصلت إلى « ثراشكروس جرانج » كانت مدبرة المنزل ، السيدة « دين » في انتظاري ، وهي

تحسب أنني هلكت في المستنقعات .

وصعدت الى الطابق العلوي ، وأنا متجمد من شدة البرد ولبست ثياباً جافة . كنت اشعر بضعف شديد منعني من الاستمتاع بدفء النار وبالقهوة التي اعدتها لي السيدة « دين » .

(٤)

سألت السيدة « دين » عند تناول طعام العشاء : « هل تعيشين هنا منذ مدة طويلة ؟ » فأجابت : « منذ ثمانية عشر عاماً ، يا سيدي . أتيت لرعاية « السيدة » لما كانت مريضة ولما توفيت ، جعلني « السيد » مدبرة هذا المنزل . »

وأردت أن استعلم منها عن أسرة « هيثكليف » و بخاصة عن الأرملة الحسناء . وسألتها عن سبب ترك « هيثكليف » لـ « ثراشكروس جرانج » واقامته في منزل شديد التواضع وقلت :

— « لعله ليس غنياً إلى درجة تسمح له بالمحافظة على ممتلكاته في هذا القصر . »

— « بل إن ثراءه يمكنه من العيش في قصر أفخم من هذا ؛ لكنه شديد الحرص على أمواله . »

— « يبدو انه كان له ابن » .

— « نعم .. لكنه مات . »

— « ومن ابن جاءت زوجة ابنه ؟ »

— « هي ابنة سيدي الراحل . كان اسمها ، قبل الزواج ، كاترين لينتون ، وأنه كنت مربيتها . »

فصحت مستغرباً :

— « كاترين لينتون ! ومن هو إذاً « هيرتون أرنشو » الذي يعيشُ مع السيّدِ هيثكليف ؟ أبينهما قرابة ؟ »

— « لا . هو ابنُ أخي السيّدةِ « لينتون » الراحلة ؛ وابنُ خالِ السيّدةِ الشابّة . و « هيرتون » آخرُ سُلالةِ « أرنشو » كما أنَ « كاترين » آخرُ سُلالةِ « لينتون » .

وسألتني السيدة « دين » عن « مرتفعات وذرنج » فقلت :

— « السيدةُ هيثكليف ! كانت تبدو صحتُها حسَنةً وجمالُها رائعاً .. لكنها ليست في تمام السّعادة . »

— « لستُ أعجبُ من ذلك .. وما رأيُكَ بالسيّد ؟ »

— « إنه شخصٌ فظ .. هل تعرفينَ شيئاً من ماضيه ؟ »

— « أعرفُ كلَّ شيءٍ عنه إلا مكانَ ولادته ، ووالديه وكيفيّةَ حصوله على المال . »

— « حسنٌ ، وهل تعرفينَ شيئاً عن جيرانِنا ؟ »

— « بالطبع يا سيّدي . »

وكانت احداثُ اليومينِ الأخيرينِ تُحرّكُ فُضولي، كما أن أثَر ما حدثَ جعلني أمكثُ في الفراشِ لمدةِ اسبوعين ، كانت تقصّ عليّ خلالهما السيدة «دين» القصة التالية .

القسم الأول

من رواية السيّدة « نيللي دين »

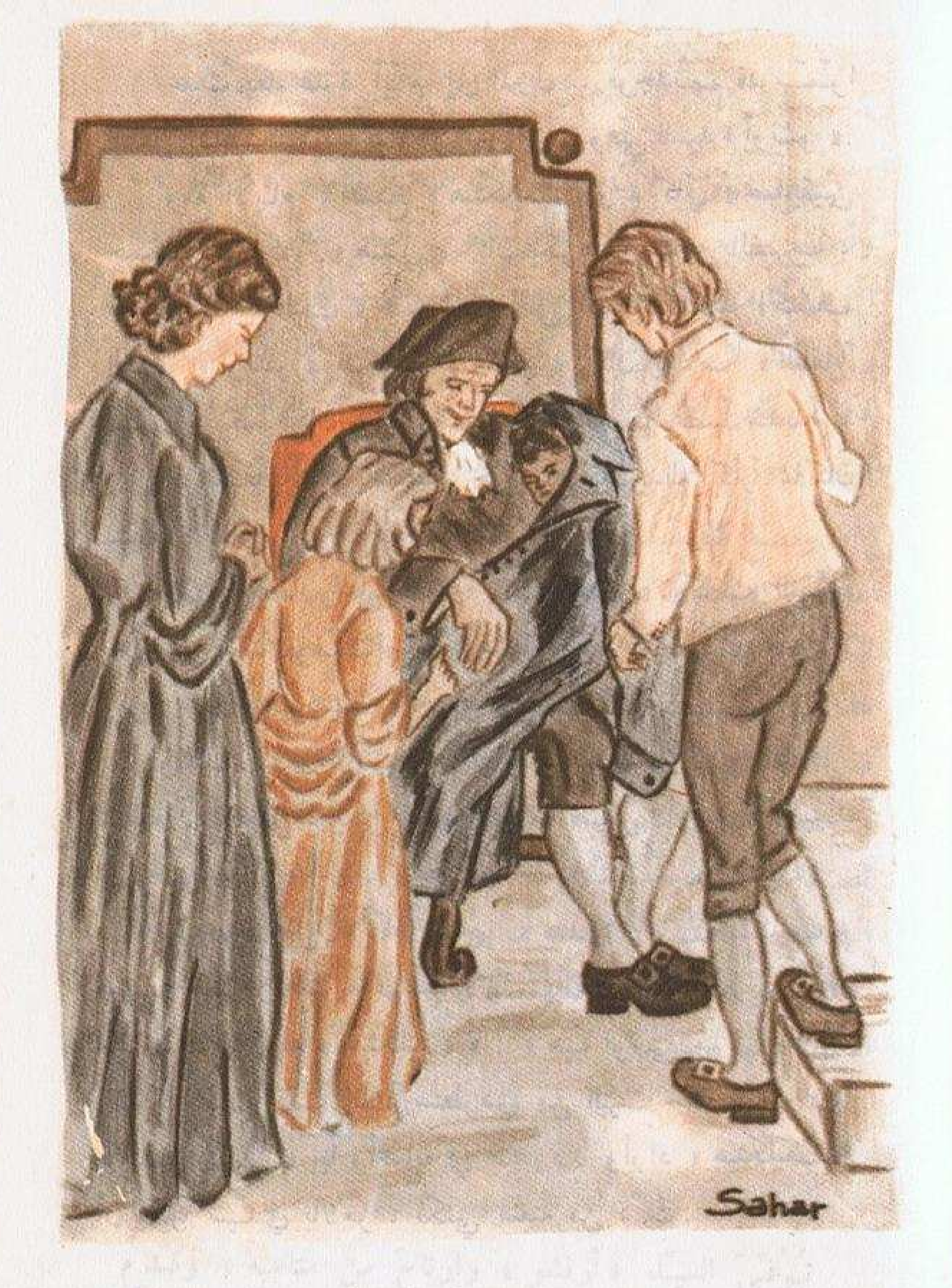
« كاترين الأولى »

تقع الحوادث بين عامي ١٧٧١ و ١٧٨٤

منذ ثلاثمئةِ سنة خلت بنى آلُ « أرنشو » « مرتفعات وذرنج » . وقبل أن آتي إلى « تراكشروس جرانج » كنتُ في المرتفعات لأن امي كانت مربّية لـ « هندلي أرنشو » ، والد « هيرتون » . كنت طفلةً حينئذ ، وكنت ألعبُ مع « هندلي » و « كاترين » ، كما اني كنتُ أقومُ ببعضِ الأعمالِ البسيطةِ في البيتِ والمزرعة .

وفي يومٍ من أيّام الصيف كان السيّد « أرنشو » ، أي سيّدي القديم ، ذاهباً الى « ليفربول » ، وطلب منه « هندلي » أن يشتريَ له كماناً ؛ أما « كاترين » فطلبت سوطاً تستعمله في ركوبِ الخيل ، مع أنها لم تكن تتجاوز السادسةَ من العمر

غاب عنا السيّد « أرنشو » ثلاثةَ أيام ، وتأخّر عن الموعدِ المنتظرِ لقدومِه . مكثنا جميعاً ننتظره ، وعند الساعة الحادية عشرةَ ليلاً ، قَدِمَ سيّدي، وجلس على أحد المقاعد ضاحكاً



التفاف الاسرة حول الضيف الغريب

وتَعباً ، ثم فتح مِعطفَه الكبيرَ الذي كان يحمله بين يديه وقال لزوجه : « أنظري ! يجب أن تأخذي هذه الهديّةَ التي أرسلَها إلينا الله ، على الرغم من سوادها الشديد » .

اقتربنا منه جميعاً ، ورأينا غلاماً قذراً مُهَلْهَلَ الثيابِ ، وما إن انزله السيّد عن حضنِه حتى أخذَ الغلامُ يتمتمُ بكلماتٍ لم نفهمْها . وقد انتابني الخوفُ ؛ أما السيّدة « أرنشو » فكانت تريدُ أن تُلقِيَ به خارجاً .

لقد عثر سيّدي على هذا الطفلِ في « ليفربول » جائعاً ومتشرّداً وغير قادرٍ على التكلّم بالانكليزية ، ولمّا لم يكن أحدٌ يعرف ذويه ، قرّر سيّدي أن يأتيَ به إلى منزله ، كما أمرني بأن أهتمّ بتنظيفِه وأن اعْطيَه ثياباً نظيفةً ، وأجعلَه ينامُ مع الطفليْن .

لم ينطق « هندلي » و « كاترين » بكلمة ، لكنهما أخذا يبحثانِ في جيب والدِهما عن الهديّتين . وأخذ « هندلي » يبكي ، وكان عمره اربعَ عشرةَ سنةً ، عندما رأى الكمانَ مُحطّماً في جيبِ معطفِ والده . أما « كاتي » فقد بصقت على الطفلِ الغريبِ لمّا علمت أن أباها أضاع السّوطَ الذي اشتراه لها لانشغالِه بالطفل . وقد رفض الولدانِ أن يناما مع ذلك الغريبِ ، ولذلكَ وضعتُه قربَ الدّرج لعلّه يذهبُ خارجاً . لكن الطفلَ زحفَ إلى غرفةِ السيدِ « أرنشو » حيثُ وجدتُه في الصّباح ، وعاقبني السيد « أرنشو » على قساوتي بطرده إيّاي من البيت .

عدتُ بعد عدّةِ أيامٍ إلى المنزلِ ، فوجدتُهم قد سمّوا الطفلَ « هيثكليف » ، وهو اسمُ ابنٍ تُوفي للسيد « أرنشو ».

ومع الأيامِ ، أصبح « هيثكليف » و « كاتي » صديقينْ حميمينْ ، لكنَّ « هندلي » كان يكرهه ويعذّبه بالضرب ، فيصبرُ « هيثكليف » لأنه اعتاد على القساوة . ولما اكتشف السيّد « أرنشو » أن ابنه « هندلي » كان يعذّبُ « الطفلَ اليتيم » — كما كان يسمّيه سيّدي — غضب غضباً شديداً ، وازداد تعلّقاً بالطفل اللقيط ، حتى إنه كان يدلله اكثرَ مما كان يدلّل « كاتي » .

مضى عامان على قدوم « هيثكليف » وكانت السيّدة « أرنشو » قد تُوُفيت . أما « هندلي » فكان يعتبرُ أباه قاسياً ، ويرى أن « هيثكليف » حرمه من حنانِ أبيه .

ولستُ أدري أيَّ شيءٍ كان يشدّ السيد « أرنشو » للطفلِ اللقيط . فالطفل لم يكن يُظهر علامةَ شكرٍ أو محبةٍ للسيّد « ارنشو » .

وفي يومٍ من الايام تشاجر « هندلي » و « هيثكليف » بسبب حصانينِ لهما ، فهدّد الاولُ بأن يرميَ الاخير بِكُرةٍ من حديد فقال له « هيثكليف » : « هيّا ارمِني بها ! وسأخبر والدك انكَ قلتَ إنكَ ستطردني من البيتِ حالما يموت » ؛ فرماه « هندلي » بها وأصابه في صدره . وأراد « هيثكليف » أن يخبرَ سيّدي بالامر ، لكنني منعته من ذلك .

(٥)

ومع مرورِ الأيّام تدهورت صحةُ السيّد « ارنشو » ، وأصبح سريعَ الغضبِ ، خائرَ القوّة . صار يشعر أن محبّته لـ « هيثكليف » كانت تدفعُ باقيَ أفرادِ البيتِ الى كُرهِ الصبيّ ، وإن كُنا لا نُظهر هذا كي لا نزعجه . أما « هندلي » ، فكان يُظهر كرهه لـ « هيثكليف » فيغضبُ الوالدُ ويعاقب ابنَه ، وزاد هذا تكبُّرَ « هيثكليف » وسوءَ طبعه .

ونصح القسّيسُ الذي كان مسؤولاً عن تربيةِ اطفالِ عائلتَيْ « لينتون » و « ارنشو » بأن يُرسلَ « هندلي » إلى الكليّة . وظننتُ اننا سننعم بالراحةِ والسلامِ بعد ذلك ، لكنَّ هذا لن يتمّ بسبب كل من « كاترين » والخادم « جوزيف » ، فقد كان « جوزيف » ينسجُ أخباراً عن « هيثكليف » و « كاتي » . والحقيقة أن « كاترين » كانتْ في غايةِ الشقاوةِ ، وكانت تصرفاتُها المزعجةُ تسبّبُ لنا نفاد الصبر . ولكنني كنتُ أظنّ انها طيّبةُ القلبِ ولا تقصد أن تؤذيَ أحداً بأعمالِها هذه .. لقد كانت مولعةً بـ « هيثكليف » وكان أكبرُ قصاصٍ لها أن نفرّق بينَها وبينه .

(٦)

تُوُفيَ السيّد « أرنشو » وارتاحَ من متاعبه ، وقدِم

« هندلي » لحضور الجنازة ، مصطحباً معه امرأته ، الأمرُ
الذي جعل الجيرانَ يتهامسونَ حوله . ولم يُخبِرنا من تكونُ
زوجتُهُ أو اين وُلِدَت . والأرجحُ أنّها كانت من عائلة
متواضعة ، وإلاّ لما كتَمَ « أرنشو » خبَرَ زواجِهِ عن أبيه .

كانتِ الزوجةُ نحيلةً ذاتَ عينَيْنِ برّاقتين ؛ وكنت
ألاحظُ أنّ صُعودَ السلّمِ كان يُتعِبُها ، وأنها كانت تُصاب
بالسّعال الشديد بعضَ الاحيان . وأحبّت « كاترين » وتمنّتْ
لو تكونُ أختاً لها . لكنها أظهرتْ كراهيةً نحو « هيثكليف » ،
وحرّكَ هذا الأمرُ الكرهَ القديمَ الكامنَ في نفسِ زوجِها لهذا
الشخصِ ، فمنعه من الجُلوسِ معهم ، وألحقَهُ بالخدمِ ،
ومنعهُ من متابعةِ دراستِهِ مع الكاهنِ ، وجعله يعملُ في الحقلِ
كغيرِهِ من المُستخدَمين .

وأظهر « هيثكليف » عدم مُبالاة بما حدث لأنّ
« كاترين » كانت تعلّمه كلّ ما تدرسه ، وكانت تشاركُه في
العمل واللهو في الحقول . وكم كانا يحبّانِ أن ينطلقا في الصّباح
إلى المُستنقَعات و يقضيا النهار معاً ثم يرجعا والعقابُ ينتظرهما ..
لكنهما كانا ينسيانِ العقابَ عندما يجتمعانِ ثانيةً .

وصادفَ في يومٍ من أيّام الآحادِ أن ابعدَ « هيثكليف »
و « كاترين » عن غرفة الجلوس بسببِ ضجّةٍ أحدثاها . ولما
ناديتُهما للعشاء لم أعثُرْ عليهما ، فقرّرَ « هندلي » أن تُغلَقَ
الأبوابُ ، وأقسمَ ألا يدَعَهما يدْخلانِ البيتَ تلكَ الليلة .
وأخلدَ الجميعُ للنوم ، أمّا أنا فانتظرتُ من على نافذةِ

غرفتي حتى سمعتُ وقعَ قدمَيْ « هيثكليف » فقلتُ له :

— « أين الآنسةُ « كاترين » ؟ أرجو ألاّ يكونَ قد اصابَها
مكروه » .

— « إنّها في « ثراشكروس جرانج » .. سأخبرك بكل
شيءٍ ريثما أبدّل ثيابي المبلّلة » .

ورجوته ألا يُحدِثَ صوتاً مخافةَ أن يستيقظَ السيّد
« هندلي » .. ثم أخذ يروي لي ما جرى لهما :

« خرجتُ أنا و « كاتي » من البيتِ لنتمتّع بساعة أو
اثنتينِ من الانطلاق . وخطرَ في بالنا ، لما لمحنا اضواءَ
« الجرانج » ، أن نرى كيف يقضي آلُ « لينتون » امسيات
أيامِ الآحاد ، فركضنا حتى وصلنا إلى غايتنا ومكثنا تحتَ
نافذة الغرفة ثم أخذنا ننظرُ الى الداخلِ ، فرأينا مكاناً رائعاً
فخماً جميلَ الألوان ، وكان « ادجار » وأخته هناكَ ... ألا
ينبغي أن يكونا سعيدين ؟ وهل تعلمينَ ماذا كانا يفعلان ؟ كانت
« ايزابيلا » — وهي في الحادية عشرةَ كما أظنّ — تصرخ في
إحدى الزّوايا ، في حينَ كان «إدجار» يبكي بقربِ المُستوقَد .
كانا قد تشاجرا بسببِ خصلة شَعرٍ من الكلبِ الصغيرِ يريدُها
كلّ منهما لنفسه . ضحكتُ انا و « كاترين » من سخافتِهما ،
فسمعا ضَحِكاتنا وأخذا ينادِيانِ والديْهما باكيَيْن . وحاولنا
أن نخيفَهما بالأصواتِ الغريبة ، ثم رأينا أن شخصاً قد قدِمَ
فقفزت انا ووقعت « كاتي » وامسكَ بها الكلبُ ، فحاولت

تخليصها فلم أقدرْ ، وجاءَ خادم وأخذها ، وهي مريضة متألّمة .

« وقال الخادمُ للسيّد « لينتون » إنّه وجد هذه الفتاةَ ، وكان معها صبيّ يشبهُ اللصوصَ ، فطلبَ منه السيّدُ «لينتون» أن يُحضرَ بُندقيّتَه . وفي هذه الأثناء أفاقت « كاتي » من غيبوبتِها وأخذت تضحكُ ، فعرفها افرادُ العائلة . وتعجّبَ السيّد « لينتون » أشد العَجَبِ قائلاً إن أخاها مُهْمِلٌ لأنه يتركُها تتصرف على هذا النحوِ ، وأنه يجبُ ألاّ تصادقَ صبياً لعيناً مثلي .

« أمّا انا فبدأت ألعنُهم لما سمعتُ ذلكَ ، وكنتُ مستعداً أن احطّمَ الزُجاجَ وآخذَ « كاتي » معي لو أرادت الخروج . ثم جاءت الخادمةُ وغسلَتْ قدميْ « كاتي » وقدّم لها السيّد « لينتون » كُوباً من الماء الحارّ ، كما قدّمَتْ لها « ايزابيلا » الحلوى . ثم أجلسوها قُرْبَ المُستوقَد . وتركتُها وانا متيقّن من أنّها أرفعُ منهم مستوىً ، بل أرفعُ من أيّ إنسانٍ على هذه الارض ، أليس كذلك ؟ »

وبعدَ أن أنهى هيثكليف روايتَه قلتُ : « ستقعُ متاعبُ كثيرةٌ عندما يعلمُ السيّدُ هندلي بهذا » . وصدق ظني ، فقد زارنا السيّد « لينتون » في اليوم التالي ، وحدثَ السيّدَ « هندلي » عن مسؤوليّاته تجاه شقيقتِه . ولذلك أنذر السيّدُ « هندلي » « هيثكليف » بالطردِ من المنزلِ إن هو تكلّم مع « كاترين » بعد ذلك اليوم .

(٧)

ظلّت « كاتي » في « ثراشكروس جرانج » خمسة اسابيع أي حتى عيدِ الميلاد . وقد شُفيَت تماماً وتحسّنت تصرّفاتُها كثيراً ، فتحولَتْ من فتاة مزعجة متوحّشة إلى فتاةٍ تهتم بحُسْنِ مظهرِها ولياقة تصرّفاتِها . وعند وصولِها استقبلها « هندلي » مُبدياً إعجابَه بجمالِها وتهذيبِها .

وجاءتِ الكلابُ ترحّبُ بها ، فأمسكت بها « كاترين » كي لا تتّسِخَ ثيابُها . ثم قبّلتني وسألَتْ عن « هيثكليف »

كنتُ في فترةِ غيابِها الشخصَ الوحيدَ الذي يدعو « هيثكليف » إلى الاغتسال ، فقد كانت ثيابُه دوماً مُتّسخةً بسببِ عملِه ، وكان وجهه ويداه بحاجة شديدةٍ إلى الماء والصابون. وناداه « هندلي » قائلاً : « تعالَ يا هيثكليف !! بإمكانك أن تُرحّبَ بالآنسة كاترين كباقي الخدم » . اندفعت « كاترين » نحو « هيثكليف » وقبّلته سبعَ قبلاتٍ أو ثمانياً ، ثم انفجرت بالضحك قائلةً : « كم تبدو أسودَ الوجهِ ومتجهّماً ... لعلّ هذا بِسَبَبِ اعتيادي على رؤيةِ « ادجار » وايزابيلا .. »

وهنا قال « هندلي » بتكبّر : « صافحها يا هيثكليف ! »

فقال الصبيّ : « لن أصافحَها . أنا لا أتحمّلُ أن تضحكوا مني » .

وهم بالانصراف ، غير أن « كاتي » أمسكت به ثانية وقالت : « لم أقصد أن أضحك منك . غير أن منظرك غريب . إنك قذر جداً » ..

ثم نظرت إلى ملابسها خوفاً من أن تتسخ بسبب قذارة « هيثكليف » ، فما كان منه إلا أن قال : « ما كان ينبغي أن تلمسيني .. سأظل قذراً كما اريد » . وانطلق من الغرفة وسط ضحكات « هندلي » وزوجه ... أما « كاترين » فقد انزعجت لأنها لم تستطع أن تفهم سبب غضب « هيثكليف » .

وكانت تلك ليلة عيد الميلاد ، وقد ذهب « جوزيف » للصلاة . أما أنا فقد جلست في المطبخ أتذكر سيدي الراحل ، وحسن معاملته لي ، وفكرت في محبته لـ « هيثكليف » وفي خوفه عليه أن يعذب ويضطهد بعد مماته .

جلست « كاترين » مع أخيها وزوجته في غرفة الجلوس . ينظرون إلى الهدايا التي سيقدمونها لعائلة « لينتون » . أما « هيثكليف » فقد وجدته في الحظيرة وقلت له : « هيا .. سألبسك ملابس جديدة قبل أن تخرج الآنسة « كاترين » فتجلس معها وتتحدثان طويلاً » ، فما كان منه إلا أن تابع عمله دون أن يلتفت إلي .

وجاءت « كاترين » إلى المطبخ لتحدث صديقها القديم ، لكنه لم يكن هناك .

في اليوم التالي استيقظ « هيثكليف » باكراً وانطلق إلى

البراري ولم يعد إلا بعد أن ذهب أفراد العائلة إلى الكنيسة . وكان يبدو أن حدة غضبه قد زالت ، فناداني بجرأة وقال : « يا نيللي ، أرجو أن تجعلي مظهري حسناً ونظيفاً .. لقد قررت أن اكون شخصاً صالحاً » .

قلت له : « لقد حان الوقت لذلك . إنك متكبر ، وقد أحزنت كاترين ، فعليك أن تعتذر منها . وعلى الرغم من أني منهمكة بإعداد الطعام ، فإني مستعدة لأن أجعل « إدجار لينتون » يبدو طفلاً أمامك أنت . إنك أصغر منه سناً ، ولكنك أطول منه واقوى ، وبإمكانك أن تتغلب عليه بثانية واحدة » .

أشرق وجه « هيثكليف » لكنه عاد فتجهم ، ثم قال : « لكن هذا لن يجعل « إدجار » قبيحاً .. كم أتمنى أن يكون لي شعر خفيف وجلد أملس ، وأن أكون بمثل حسن مظهره وثرائه ! .. »

— « وهل تتمنى أن تجلس مثله في البيت تستنجد بأمك في كل حين ؟ لا تكن قليل الثقة بنفسك . أنظر إلى نفسك في المرآة وستجد أنك حسن المظهر ونظيف ، وأنك قد تخلصت من سوء طبعك ، وغضبك . ربما كان والدك ملكاً في الشرق وامك ملكة ، وقد اختطفك بعض البحارة الاشرار إلى لندن ، من يدري ؟ »

ولما بدا التحسن على وجه « هيثكليف » سمعت صوت عربة تدخل فناء الدار ، فنظرت من النافذة ورأيت

« كاترين » مُمْسِكَةً بيد « ادجار » و « ايزابيلا » تقودُهما إلى داخلِ المنزل .

كنت أحثّ « هيثكليف » على لقائهم جميعاً ، لكنّ حظّه كان سيئاً ، فقد رآه هندلي ولم يَرُقْ لـه أن يكون « هيثكليف » نظيفاً وحسَنَ المظهر – أو أنه تذكّر كلمات السيّد « لينتون » ، فدفعَ به بقوّةٍ وطلبَ من « جوزيف » أن يُبْقِيَهُ في الطابقِ العلويّ حتى الانتهاءِ من الغَداء . وأخذ « هندلي » يصيحُ : « إذهبْ أيّها الغَجَرِي ! أتُريدُ أن تَتَشَبّهَ بأسيادك ؟ سأشدّ بك من شعرِك املي اجعلهُ اكثر طولاً » .

فقال إدجار : « إن شعرَه طويلٌ بما فيه الكفاية ، ما أشْبَهَهُ بشعرِ الحصان ! »

لم يحتملْ « هيثكليف » هذه الملاحظة ، فأمسكَ بصحنٍ مليءٍ بصلصةِ التفّاحِ الحارّ وقذفَ به وجهَ « ادجار » فلوّثَه . فأجهش « ادجار » بالبكاء ، وأسرعتْ إليه شقيقته و « كاتي » وجئته أنا بخرقة أمسحُ بها وجهَه . أمّا السيّد « ارنشو » فقد دفَعَ « هيثكليف » إلى خارج الغرفة .

وقالت « كاترين » لـ « ادجار » : « ما كان ينبغي أن تكلّمَه . إنه سوف يُضرَبُ الآنَ ، وأنا اكره ذلكَ ، ولن استطيع أن أتناولَ طعام الغداء ! »

فقال ادجار : « انا لم اكلّمْه .. لقد وعدتُ والدتي بذلك » .

ثم جلس الجميعُ إلى المائدةِ وعادتِ الفرحةُ إلى قلبَيْ « ادجار » و « ايزابيلا » . أما « كاترين » فلم تستطعْ أن تتناولَ طعامَها ، فأسقطَتْ شوكتَها على الارضِ لتتناولَها وتخفيَ عينيها الباكيتيْن عن الموجودين . لقد ظلّت حزينةً طوالَ ذلك اليوم .

وعندَ المساءِ كانتْ حفلةُ الرقص ، وتمنّت « كاترين » أن يكون « هيثكليف » موجوداً بينهم . لقد كانتْ مُولعةً بالموسيقى ، وقد جاء خمسةَ عشرَ موسيقياً وبعضُ المغنّين ، وأمتعونا بمعزوفاتهم .

ثم صَعِدَت « كاترين » إلى الطابقِ العلويّ وتبعتها أنا ، فسمعتها تتكلّم مع « هيثكليف » من خلفِ الباب . ولم ينتبهْ أحدٌ إلى غيابنا ، لكنّني أردتُ أنْ احذّرهما من البقاءِ هناك بعدما أنهى الموسيقيّون عزفَهم ، فإذا بي اكتشفُ أنها تسلّلت من السطحِ الى الغرفةِ التي كان فيها « هيثكليف » .

أفهمتُها أنني لا اشجّعها على مثلِ هذه الخدَعِ ، غير أنّي سأغضّ النظرَ هذه المرّةَ لأنّ « هيتكليف » لم يَذُقْ لُقمةً واحدةً منذ ليلة أمس ، ثم انزلتُه إلى المطبخِ وأجلستُه قربَ النار ، ولكنّه كان مريضاً فلم يقْوَ على أكلِ الشيءِ الكثيرِ من الطعام . ولما سألتُه عما يفكّر به قال : « أحاول أن أجد طريقة للانتقام من « هندلي » .. لا يهمني طول الانتظار .. ولكن علي أن أنتقم منه » .

(٨)

في صباحِ يومٍ مشرقٍ من حزيران عام ١٧٧٨ وُلِدَ «هيرتون» آخرُ سلالة عائلة «أرنشو» العريقة ، وكانت صحتّه عند الولادة جيدّةً ، غيرَ أن أمّه كانت تعاني من السلِّ ، وتوقّعَ الطبيبُ ألاّ تعيشَ طويلاً ، وصحَّ هذا التوقّع ، فماتت في إحدى الليالي على كتِفَيْ زوجِها .

وهكذا تعهّدتُ أنا بتربيةِ الطفلِ ، وكان والدُه يكتفي بأن يراهُ بصحّة جيّدة ، فقد كان «هندلي» غيرَ قادرٍ على تحمّلِ فقدان امرأته : لم يكن يبكي أو يصلّي ، بل كان يلعن الأقدار .

ولم يبقَ في المنزل من الخدم إلاّيَ و «جوزيف» ؛ ولم يعد يزورُنا أحدٌ ذو شأنٍ إلا «إدجار لينتون» الذي كان يأتي من أجلِ «كاترين» ، وكانت في الخامسةَ عشرةَ ، وقد أصبحَتْ عنيدةً متكبِّرةً . غير أنّ «هيثكليف» ظلَّ مؤثِّراً على عواطفها ، ربما اكثرَ من «ادجار» ، على الرغمِ من أنّ «أدجار» اعلى منه مقاماً .

ولم تكن «كاترين» تُظهِرُ الجانبَ السّيءَ من خُلقِها أمام عائلة «لينتون» ، فتمكّنت بذلك من أن تنالَ إعجابَ الوالدِ والوالدةِ والابنةِ ، ومن أن تَسْحرَ قلبَ «ادجار» .

وبدأ «هيثكليف» — وقد بلغ السادسةَ عشرةَ — يفقد شعورَه بالتكبُّرِ الذي كان يشعر به حين يدلِّلُه السيِّد «ارنشو»

المُتَوَفّى ، وصار يشعرُ أنه لا يستطيعُ أن يتابعَ دروسَه التي كان يتلقّاها من «كاترين» ، وأيقنَ أن مستواهُ ينحدرُ باستمرار ، فقلّما كان يتكلم ، وأصبح يجد لذّة في بعثِ شعورِ الاشمئزازِ في نفوسِ من يلقاهم .

واحتفظ برفقة «كاترين» عندما كان يفرغُ من العمل .

وفي أحد الأيّام كانَ السيّد «هندلي» غائباً عن البيت ، فقرّر «هيثكليف» ألاّ يعملَ ما بعدَ الظهر ؛ وصار يبحث عن «كاترين» في المنزل . وبينما أنا أساعدُها على ارتداء ملابسها استعداداً لاستقبالها «ادجار» — وكانت قد أعلمتْه بغيابِ أخيها — دخل «هيثكليف» وسألها :

«لِمَ ترتدين هذا الثوبَ الحريريَّ ؟ أرجو ألا يكونَ أحد قادماً إلى هنا . »

— «لا أعلم إن كان سيأتي أحدٌ أم لا ، ولكن ينبغي أن تكونَ الآنَ في الحقل . »

— «لن أعملَ اليوم ما بعد الظهر ، فقلّما يريحُنا «هندلي» من وجوده . »

وبعد فترة صمت قصيرة قالت :

— «قد يأتي إدجارُ وإيزابيلا اليوم . »

— «كلّفني نيللي بأن تقولَ لهما إنّكِ قد خرجتِ .. لا تطرديني من أجلِ زائريكِ التافهيْن ! »

— «وهل ينبغي أن أظلَّ جالسةً معك ؟ ماذا أجْني من ذلك ؟ وفي أي موضوعٍ سنتكلّم ؟ »

انزعج « هيثكليف » بسبب هذا الكلام وقال لها : « لَمْ تقولي لي سابقاً إنَّكِ لا تُحبّين صحبتي ! » ، فقالت : « ليس هنالك صحبةٌ عندما لا يعرفُ الناسُ شيئاً ولا يتكلمونَ بشيء ».

ولم يستطـِـع « هيثكليف » التعبير عن مشاعرِه لأنَّ « ادجار » كان قد وصل حينئذ . لقد لاحظت « كاترين » الفرقَ البعيدَ بين صديقيَهْا لما كان احدُهُما يدخل الغرفةَ والآخرُ يغادرهـــا .

ولما دخل « ادجار » قالت لي « كاترين » :

— « ماذا تفعلين هنا يا « نيللي » » ؟

— « انني اقومُ بعملي يا آنستي . »

وكان « هندلي » قد أوصاني بالبقاء أمامَ « إدجار » في أيَّة زيارةٍ خاصةٍ يقومُ بها ، فقلتُ إني سأنظّفُ الغُرفةَ لأنَّ « هندلي » ينزعجُ من تنظيفِها في حضورِه .

وظنّاً منها بأن « ادجار » لا يراها ، قرصتْ ذراعي فآلمتني . وأردتُ أن انتقمَ فصِحتُ بها قائلةً : « ليس من حقكِ أن توجعيني بالقَرص » ، فادّعتْ أنها لم تفعلْ ذلكَ ، فكشفت لها عن ذِراعي وأريتُها أثرَ ما فعَلتْ . عند ذلكَ ضربتِ الأرضَ بقدميها وصفعت خدّي صفعةً بكيتُ بسببها .

تعجّب « ادجار » مما صَدَرَ من « كاترين » : الكذب والعنف . ثم بدأ « هيرتون » الصغير بالبكاء ، فأمسكتْ بـه « كاترين » ، وأخذتْ تهزُّه بعنف فابيضّ لونه . وأمسك « ادجار » بيديها ليخلّصَ الطفلَ من قبضتِها ، وبسرعةٍ

استطاعت أن تخلّصَ إحدى يديْها منه وصفعتْه على أُذُنِه .

اصفرّ لون « ادجار » واضطربَتْ اعصابُه ، وهمّ بالرحيلِ ، فقالت « كاترين » :

— « إلى أين أنتَ ذاهبٌ ؟ »

— « وهل يمكنني البقاءُ بعد أن صفعتِني ! لقد سبّبْتِ لي الخوفَ والخجلَ منك ، ولن اجيءَ إلى هنا بعد اليوم ، وبخاصةٍ بعد أن لجأتِ إلى الكذب . »

انهمر الدمعُ على وجنتيْ « كاترين » . وبعد أن وصل « ادجار » إلى فِناء الدار ، لم تمكّنْه إرادتُه الضعيفةُ من الرحيلِ ، فرجَعَ إلى الداخلِ وأقفلَ البابَ خلفَه . ولما وصل السيّدُ « أرنشو » إلى البيتِ سكرانَ دخلتُ لأُخبرَهما بذلك ، فوجدتُ أن الخلافَ لم يزدْهما إلا قُرباً واعترافاً بالحبّ .

(٩)

وعند مجيءِ السيّدِ امتطى « ادجار » حصانَه ذاهباً ، وجَلَستْ « كاترين » في غرفتِها .

أردتُ أن أُخفيَ « هيرتون » الصغيرَ لكنّ أباهُ السكرانَ أصرَّ على ان يَحْمِلَه معه إلى الطابق العلويّ . وحصل ما كنتُ أخشاه ، فقد سقطَ الطفلُ من يديْ والدِه .. وفي اللحظةِ المناسبة صادفَ مرورُ « هيثكليف » في الأسفلِ ، فأنقذَ الصبي باحتضانه . ولاحظَ « هيثكليف » بذلك أنه جعلَ من نفسِه



ولم يستطع هيثكليف الاحتمال فهرب

وسيلةٌ لتعطيلِ انتقامه من « هندلي » .

خجِل « هندلي » من نفسه وقالَ إنَّه كانَ يجبُ عليَّ أن أُخفيَ الطفلَ فقلتُ : « أنا أعجبُ كيفَ أنَّ أمَّه لا تقوم من قبرِها لترى معاملتَكَ السيِّئة له » ، فلم يُجِبْني ، بل تناولَ زجاجةَ خمرٍ وطلبَ إلينا أن ننصرف .

وبينما كُنتُ أعتني بالطفلِ الصغيرِ في المطبخ ، إذا بـ « كاتي » تطلُّ برأسِها من البابِ وتقول :

— « هل أنت وحدَكِ يا نيللي » ؟

— « نعم ، يا آنستي . »

— « وأين هيثكليف ؟ »

— « إنه يعملُ في الاسطبل . »

ولم يكنْ « هيثكليف » يعملُ في الاسطبلِ ، بل كان يرتاحُ في الساحة على مقعد عالٍ ، فلمْ يعارضْني فيما أقولُ ، ولربَّما كان مُستَسلِماً للنوم .

وقالت كاترين بعدَ ذلك : « آه .. كم انا تعيسة ! ! هل يمكنُكِ أن تحفظي سري يا « نيللي » ؟ لقد عرضَ عليَّ « ادجار » الزواجَ وقبلتُ بذلكَ .. فهل أنا مخطئةٌ بقبولي به ؟ »

— « هل تحبّينَه ؟ »

— « بالطبع أحبُّه . »

— « ولماذا تحبِّينَه ؟ »

— « لأنَّه وسيمٌ ولطيفُ المعشرِ ، وسوفَ يصيرُ ثرياً ، وأُصبح انا أعظمَ امرأةٍ في هذا الجوار . »

– «ولماذا أنتِ تعيسةٌ اذاً؟ سيُسَرُّ أخوكِ بهذا ولن يعترضَ أهل «إدجار» على الأمر. وسوف تنتقلينَ من هنا إلى منزل محترمٍ فيه ثراء. فما مشكلتُكِ اذاً؟»

فأشارتْ إلى صدرها وقالت: «هنا، في روحي وفي قلبي، حيث أنا مقتنعةٌ بأني أخطأتُ. لا يحقُّ لي أن أتزوّجَ «إدجار لينتون»؛ ولو أن اخي الشرّيرَ لم يُحقّرْ «هيثكليف» إلى تلكَ الدرجةِ، لـمَا فكّرت بالزواجِ من إدجار. إن زواجي من هيثكليف يحط من قدري، لكنّه لن يعرفَ أنّي أُحبُّه. أنا أُحبُّه، ليس لأنّه وسيمٌ، بل لأنّه أقربُ إليَّ من نفسي».

وهنا سمعتُ صوتَ حركةٍ خفيّةٍ، فالتفتُّ إلى الوراء ورأيتُ هيثكليف ينصرفُ خارجاً. لقد استمعَ إلى حديث «كاترين»، لكنّه لم يقوَ على أن يُتابعَ الاستماع بعد أن قالتْ إن زواجَها منه يَحُطُّ من قَدْرها.

ثم طلبتُ منها أن تكفَّ عن الحديثِ كي لايسمع «جوزيف» و «هيثكليف» شيئاً فقالت: «لا يمكنُ أن يكونَ قد سمعني هيثكليف. سأتناولُ طعامَ العشاءِ معك ومعه، لأتأكّد من أنه لا يعرفُ شعوري.. لا يعرفُ ما معنى الوقوعِ في الحبّ».

قلت: «لا أرى سبباً يمنعه من معرفة شعورك، وإذا كان اختيارُه قد وقَعَ عليكِ فانه سيصبِحُ أتعسَ إنسانٍ. وحين تصبحين أنت زوجةَ ادجار، سيفقد هيثكليف الصداقة والحنان. سيفقد كل شيء.»

فقالت: «ولكنَّ على ادجار أن يتخلّصَ من كرهه

لـ «هيثكليف». إذا أنا تزوّجتُ هيثكليف فسنكونُ فقيرينِ تماماً، أما إذا تزوّجتُ «ادجار» فانّني سأساعدُ هيثكليف على التخلصِ من سلطةِ أخي عليه.»

– «إن هذا اسوءُ عذرٍ سمعتهُ منكِ لتبرير زواجِك من إدجار».

– «لا.. انا أعتقدُ أن أكبر شقاءٍ لقيتُه في حياتي كان شقاء هيثكليف، وأن أملي في الحياة هو هيثكليف نفسُه. إن حبّي لـ «إدجار» سيذبلُ مع الأيّامِ، اما حبّي لـ «هيثكليف» فثابتٌ كالصخر. إنه دائماً في مخيّلتي.. إنّه وجودي كلّه... بل إنّني أنا هيثكليف نفسُه.»

وقلقتْ كاترين بسببِ غيابِ هيثكليف وبخاصّة بعد أن أخبرتُها أنّه سمع جزءاً من حديثِها.

وعند الليلِ، عصفتْ ريحٌ قويّةٌ بالمرتفعات، يصحبُها رعدٌ مُزمجِرٌ؛ وقد ظلّت كاترين تنتظرُ هيثكليف عند مدخلِ البيتِ حتى ابتلّتْ ثيابُها وأصابها بردٌ شديدٌ، فأدخلتُها إلى البيتِ لكنّها لم ترضَ أن تلبسَ ملابسَ جافّةً. وفي الصباحِ رأيتُها على المقعدِ نفسِه وأسنانُها تَصْطَكُّ من البرد وأمرني هندلي بأن أُصعدَها إلى سريرِها.

ولمّا وصلنا إلى غرفتِها انتابَني فزعٌ شديدٌ بسببِ تصرّفاتِها الجنونيّةِ، فطلبتُ من جوزيف أن يُحضِرَ لها طبيباً... وأمرني الطبيبُ بابقائِها في الفراشِ وبتغذيتِها بالسوائلِ، كما أوصاني بأن أراقبَها كي لا ترميَ بنفسِها من النافذة.

زارتنا السيّدة « لينتون » كثيراً خلال مرض « كاترين »، وعندما بدأتْ تستعيدُ نشاطَها ، استضافتها السيّدة « لينتون » في منزلها ، وكان أن انتقلت عدوى الحُمّى الى السيِّد والسيِّدة « لينتون » فماتا بسبب ذلك .

رجعتْ كاترين إلينا وقد ازداد تكبُّرُها وحِدّةُ طبعِها . أما هيثكليف فلم يَظْهر بعدَ ليلةِ اختفائه . وفي أحد الأيّامِ قُلت لكاترين إنها هي سببُ هربِه ، فانزعجتْ من كلامي ولم تعدْ تكلّمني مدّةَ أشهرٍ إلا بوصفي خادمة . لقد بدأتْ تعتبرُ نفسَها سيّدةَ البيتِ، كنّا جميعاً نسكتُ عندما تغضبُ ويحتدُّ طبعُها خوفاً من أن يعودَ إليها مرضُها من جديد .

وبعد مرورِ ثلاثِ سنواتٍ على وفاة أبيه ، تزوّج إدجار من كاترين ، واعتبرَ نفسَه أسعدَ إنسان على وجه الأرض .

(١٠)

انتقلتُ من المرتفعاتِ إلى منزلِ « كاترين » الجديد ، وذلك بالرغم من إرادتي ، وقد فارقتُ « هيرتون » فراقاً حزيناً ، وكانَ قد بلغَ الخامسةَ من عُمره .

وفي « ثراشكروس جرانج » كانت تصرّفات كاترين أفضلَ بكثيرٍ ممّا توقّعتُ . وكانت تُظهر حباً كبيراً لإدجار ، وحتى لشقيقته ، كما أنه هو أحاطها بحنانه وحرصَ على سعادتها وراحتِها التامتين .

غير أنّ السّعادة الّتي بدأت تخيّم على الشابيّنْ ما لبثت أن انتهت . فبينما كنتُ في ليلةٍ من ليالي أيلولَ في الحديقةِ إذا بي أسمعُ صوتاً يُنادي من الوراء: « أهذهِ أنتِ يا نيللي » ؟ كان الصوتُ عميقاً غريبَ اللهجة غيرَ أن طريقةَ لفظِه كلمةَ «نيللي» كانت مألوفةً عندي . ثمّ تبيّنتُ معالمَ رجلٍ طويلٍ مُرْتدٍ ثياباً قاتِمةَ اللونِ ، وتأملتُ في وجههِ وصرختُ قائلة :

– « هل رجعت ؟ أهذا حقاً أنت ؟ »

– « نعم .. أنا هيثكليف، أينَ سيِّدتُك ؟ إني أريدُ ان أقولَ لها كلمةً واحدة . قولي لها إن شخصاً من « جيمرتون » يريدُ أن يقابلَها ... سأنتظرُها هنا بفارغِ الصَّبر . »

ولما وصلتُ إلى غرفةِ الجلوسِ كان إدجار وكاترين واقفينِ بقربِ النافذة ، وبعد طولَ تفكيرٍ قررتُ أن أتكلّمَ فقُلت : « إن هناك شخصاً من جيمرتون يريدُ أن يراكِ يا سيِّدتي » .

فنزلتِ السيِّدة لتقابلَ ذلك الشخصَ وسألني زوجُها :

– « من يكونُ هذا الشخص ؟ »

– « إنه شخصٌ لا تتوقعُ سيِّدتي قدومَه. إنّه هيثكليف الذي كانَ يعيشُ عند السيد أرنشو » .

–« ماذا ؟ ذلك الغجريّ.. ذلك الصبيُّ الذي يحرثُ الحقل؟»

– « مهلاً يا سيِّدي .. لاتنعتْهُ بهذهِ النعوت، فإن هربَه كان قد سبَّبَ لكاترين حزناً عميقاً . »

وهنا دخلتْ كاترين وألقتْ بذراعيها حول رقبةِ إدجار قائلةً بتعجُّب :

— « إدجار ... لقد عاد هيثكليف ! » .

— « حسنٌ .. ولكنْ لا تنفعلي كثيراً ! »

— « أنا أعلمُ أنكَ لم تكن تحبُّه ، ولكنْ يجبُ أن تكونَ صديقاً له ، إكراماً لي . هل أدعوه إلى الصُّعود ؟ »

فقال بانفعال : « إلى هنا ؟ أليسَ المطبخُ مكاناً افضلَ له ؟»

فأجابته : « لا .. انا لا استطيعُ الجلوسَ في المطبخ . »

وعند ذلك قال لي ادجار : « إنزلي انتِ وادعيهِ للدخول ».

ثم توجَّه بالكلامِ إلى زوجته قائلاً : « ليسَ من الضروريِّ أن يراكِ الخدمُ تستقبلينَ خادماً هارباً وكأنّه شقيقُكِ » .

أدخلتُ هيثكليف إلى غرفةِ الجلوسِ فاستقبلَتْهُ كاترين بحرارة واستقبله إدجار بشيءٍ من البرودة .

أخذتُ أتأملُه وألاحظ مدى تغيُّرِه.. لقد أصبح رجلاً طويلَ القامةِ حسنَ المظهرِ ، حتى لقد بدا إدجار صغيراً أمامَه . وكان الذكاءُ بادياً على قسمات وجهه ، واختفتْ ملامحُ الازدراءِ التي كانت عليه ؛ أما تصرُّفاتُه فكانت وقورةً خاليةً من الخشونةِ ، حتى إن ادجار لينتون لم يكن يعرفُ كيفَ يستقبلُ هذا الشخصَ الذي وصفَه منذُ قليلٍ بالطفلِ الغجريِّ الحرّاث . وبعد فترةِ صمتٍ قال :

— « تفضَّل بالجلوسِ يا سيِّدي .. إن السيِّدةَ « لينتون » ترغبُ في استقبالِكَ هنا ، ويُسعدني أن أُحققَ لها رغبتَها . »

فأجابه هيثكليف : « وكذلك أنا .. سأمكثُ هنا ساعةً او اثنتين بملءِ إرادتي . »

كانت كاترين تحدِّق في وجهِهِ . أما هو فلم يكنْ يرفع نظرَه إليها ، ولكنَّ عينَيْهِ أظهرتا ارتياحاً واضحاً لوجودها معه ، ثم قالت كاترين :

— « أتعلمُ أنكَ لا تستحقُّ مثلَ هذا الاستقبالِ بعدَ قسوتِكَ علينا ؟ أتغيبُ ثلاثَ سنينٍ دون أن تُفكِّر بي ؟ »

— « لقد فكّرتُ فيكِ أكثرَ قليلاً مما فكّرتِ أنتِ فيَّ. لقد سمعت بزواجك منذ مُدَّة قريبة ، فقرّرتُ أن أُلقيَ نظرةً عليكِ ، وأن أنتقمَ من هندلي ، وأتجنَّبَ السجن بقتلِ نفسي. لكنَّ استقبالَكِ لي طردَ هذه الافكارَ من مُخيِّلتي .. لقد عانيتُ كثيراً في الحياة، ولم يكن كفاحي كلُّه إلا من أجلِكِ . »

وحاولَ لينتون أن يُغيِّرَ مجرى الحديث ، كما أن ايزابيلا جلستْ مَعَ الموجودينَ . ولم يَطُلْ مكوثُ الضيفِ طويلاً ، وقد سألتُه وأنا أودِّعه إن كان سيذهبُ إلى « جيمرتون » ، فأجابني : « لا .. سأذهب الى مرتفعات وذرنج ، وكنتُ قد مررتُ بها في الصباحِ لعلي أجدُكِ وتُخبريني عن كاترين... لقد دعاني هندلي إلى زيارتِه لمّا عرفَ أني جمعتُ مالاً كثيراً ، وسوف أُقيمُ هناكَ لاكون قريباً من كاترين . إنَّ هندلي طمّاعٌ ، لكني سأدفعُ له كثيراً من المالِ لقاءَ نزولي عندَه لأبقى قريباً منها» .

وشعرتُ أن من الأفضلِ لـ «هيثكليف » أن يبقى بعيداً عنّا.

* * *

أخذ هيثكليف — أو السيِّدُ هيثكليف كما ينبغي أن أقول — يتردَّدُ على « ثراشكروس جرانج » بحذَرٍ ، كما أن كاترين

رأت أنّ من الحكمة ألاّ تُظهِرَ احتفاء كبيراً بزائرها كي لا تُثير غيرةَ زوجها.

وحصل ما لم يكُنْ متوقعاً، فقد أخذت ايزابيلا تظهر ميلاً مفاجئاً الى الزائر. كانتْ في الثامنةَ عشرةَ من العمر، وتصرفاتها تنمّ عن طفولة، وإن كانتْ شديدة الذكاء. أما أخوها الذي كان يُحبها أشدّ الحب فقد تخوّف من حبهـا لـ «هيثكليف»، وكان يخجلُ من أن تتزوجَ اختُه من هـذا الشخص، وبخاصة لأنه كان لا يبادلها حبّها.

كنّا جميعاً قد لاحظنا أن ايزابيلا كانت حزينةً وشديدةَ الاضطراب. وكنا نعزو ذلك إلى ضعفها ومرضها. ولمّا قررتْ كاترين أن تُحضر لها طبيباً ليفحصها، أعلنتْ ايزابيلا أنّ صحتَها جيدة وأن سببَ تعاستها هو قساوةُ «كاتي» عليها، فتعجبتْ كاترين من هذا التصريح قائلةً:

— «ومتى كنتُ قاسيةً عليك؟»

— «أمس كنت كذلكَ لما كُنّا في نزهة في البراري، وطلبتِ مني أن أتجولَ حيثُ أريدُ، بينما ذهبتِ أنت لتقابلي السيّدَ هيثكليف.»

فقالت كاترين ضاحكةً: «وهذه فكرتُكِ، إذاً، عن القسـاوة؟»

فأجابتها: «لقد أردت إبعادي لأني أردتُ أن اكونَ معه.. إنكِ أنانيةٌ يا كاترين.. أنا أحبُّ هيثكليف اكثر مما أحببتِ أنت إدجار.. وهو سيُحبني لو أنكِ تتركينه.»

قالت كاترين: «لا أحسدُكِ على موقفك أبداً يا ايزابيلا. إن هيثكليف رجلٌ قاسٍ وعنيفٌ، وأنا متأكدةٌ من أنه لن يُحبَّ أحداً من عائلة لينتون، لكنّه قد يتزوجكِ طمعاً في الإرث.. إنه صديقي وأنا أعرفه.»

فصرختْ ايزابيلا: «إنكِ لعدوّةٌ لدودة.»

وفي اليوم التالي اضطرّ سيّدي الى الرحيل بسبب بعض الأعمال، فعلمَ هيثكليف بذلك وجاء مبكراً وكانت كلٌّ من «كاترين» و«ايزابيلا» في المكتبة صامتتين بسبب الخصومة التي وقعت بينهما. ولما دخلَ هيثكليف تمنّتْ ايزابيلا لو تخرج من الغرفة لولا أنها تأخرتْ في ذلك، وبعد جلوسه قالتْ كاترين: «إنك الشخصَ المناسبُ لصحبتنا كلينا. إني فخورة بأن أدلّك على شخصٍ مولعٍ بك اكثر من ولعي أنا بك.. إنها شقيقةُ زوجي المسكينة.. لا.. لا تهربي يا ايزابيلا..» ثم تابعتْ تقولُ: «لن أدعى أنانيةً بعدَ اليوم».

لم يُبدِ هيثكليف اهتماماً بالأمر، لكنه قال لكاترين: «يبدو أنكِ مخطئةٌ. وهي الآنَ، على اية حال، ترغبُ في الانصراف». فلم تتحمل المسكينةُ اكثرَ من ذلك، وظلّت كاترين ممسكةً بها، فلجأت الفتاة إلى أظافرها لتدافع بها عن نفسها وانطلقت.

وبعد خروجها قال هيثكليف:

— «هل كنتِ تقولينَ الحقيقـة؟»

— «أؤكد لك ذلك.»

ـ « أليستْ وريثــةَ أخيها ؟ »

ـ « بلى .. الا اذا رُزقتُ انا طفلاً .. وعلى أيةِ حالٍ ، إنسَ هذا الامرَ ، فانك تفكرُ كثيراً بممتلكاتِ غيرِك مــن الناس . »

ولم يتحدّثا بعد ذلكَ في الموضوعِ . ولكنني رأيتُ ابتسامةً خبيثةً ترتسمُ على شفتَيْ هيثكليف بعد أن غادرت كاترين الغــرفة .

(١١)

لقد كنتُ قَلِقَةً بشأنِ بقاءِ هيثكليف في المرتفعات ، ولم استطعْ معرفةَ سرِّ بقائه هناك .. وفي أحدِ الأيامِ المُشْرِقَةِ قرّرتُ الذهابَ الى « مرتفعات وذرنج » ، فوجدتُ « هيرتون » الصغير ـ ولم أرَه منذُ عشرة أشهر ـ فقلت له : « حبيبي هيرتون .. أنا نيللي مربيّتُك .. » . لكنه لم يعرفْني وتناول حجراً قذفَ رأسي به ، وأخذَ يلعنني بشراسة . كدتُ أبكي ، لكنني تناولتُ بُرتقالةً من جيبي وقدّمتُها له ولُمتُه على ما قاله ، ثم قلتُ له :

ـ « قلْ لي أينَ تتلقى دروسَك وأنا أعطيكَ برتقالةً أخــرى . »

ـ « أبي يعلّمني . »

ـ « وماذا تتعــلّم منه ؟ »

ـ « لا شيء إلا أن أبقى بعيداً عنه لأنه لا يتحمّلُني . »

ـ « ومن علّمكَ الشّتمَ والسِّباب ؟ »

ـ « هيثكليف . »

سألتُه إن كان يُحبُّ هيثكليف فقال إنه يُحبُّه ولما سألتُه عن السببِ قال « لأنه يشتمُ والدي حين يسيء معاملتي ، ولأنه يقولُ إن بإمكاني أن أفعلَ كلَّ ما يحلو لي » .

ثمّ سألته : « ألا يعلّمك القسّيسُ الكتابةَ والقراءة ؟ »

فقال : « لا .. لقد أقسم هيثكليف أن يُحطِّمَ أسنانَ القسّيسِ إذا جاء إلى هنا . »

أعطيتُه البرتقالةَ وطلبتُ منه أن يُخبرَ أباه أن « نيللي دين » تريد أن تُكلِّمَهُ ، فدخلَ البيتَ ، وبدلاً من أن يجيءَ والدُه أطلَّ هيثكليف على الدَّرجِ ففزعتُ من رؤيتِه ورجعتُ راكضةً .

جاء هيثكليف يوماً لزيارتِنا وكانت « إيزابيلا » تُطعِمُ بعضَ الطيورِ في الفِناء. ولم يكنْ من عادتِه أن يُظهرَ اهتماماً بـ« ايزابيلا » ، لكنّه توقّفَ عندَها هذه المرّةَ ، فحاولتْ أن تبتعدَ عنه ، غير أنّه وضع يده على ذراعِها ونظرَ نظرةً سريعةً من حوله ليتأكّدَ أن أحداً لا يراه ـ وكنتُ أنا مختبئةً خلفَ نافذة المطبخ أراقبهما ـ ثمَّ حاولَ أن يحتضنَها بذراعيه ، فلم أتمالكْ نفسي وقُلتُ : « يا لَلْعار ! » فسمعتْني كاترين وسألتني :

ـ « عمّن تتكلمين ؟ »

ـ « عن صديقكِ الحقيرِ .. ما عذْرُه في مغازلة ايزابيلا وكان قد أخبرَكِ أنّه يكرهُها ؟ »

تخلّصت ايزابيلا من هيثكليف وركضتْ إلى الحديقة ، وبعد قليلٍ دخل هيثكليف الى المنزلِ فبادرتْهُ « كاترين» بقولها :

ــ « ماذا تقصدُ من أعمالِك هذه ؟ أرجو أن تبتعدَ عن ايزابيلا إلاّ إذا أردتَ أن يمنعكَ أخوها من المجيء إلى بيتنا . »

ــ « وما شأنُكِ أنتِ ؟ مِن حقّي أن أقبِّلها إذا رَضِيَتْ هي بذلك ، فأنا لستُ زوجَكِ حتى تغاري منها .. إسمعي يا كاترين : أريدُكِ أن تَعْلمي أنّكِ قد اسأتِ معاملتي ، ولن أتعذَّب دون أن أنتقم ؛ كما أني أود أن أشكرَكِ على بوحِكِ لي بسرِّ ايزابيلا ... تأكّدي من أنني سأستغلُّه إلى ابعد الحدود . »

ثم تابعَ قائلاً : « لا أريدُ أن أنتقِمَ منكِ أنتِ حتى ولو عذَّبْتِني أشدَّ العذابِ ؛ ولكنْ لا تتوقعي أن اكونَ قدّيساً بعد أن حطَّمْتِ حياتي . »

فأجابتْه كاترين بقولها : « انتقمْ من ادجار ، وأخدعْ أختَه اذا شئتَ ، ولكنّكَ بذلكَ تكونُ قد انتقمتَ منّي اشدَّ الانتقام . »

وتوقّفت المحادثةُ ، فتركتهما لأبحثَ عن سيّدي ، فلمّا وجدتُه أخبرتُه أن سيّدتي منزعجةٌ من تصرُّفات « هيثكليف » ، وقصصتُ عليه ، بجرأة ، ما حدث . عند ذلك أعلنَ أنّه لم يَعُدْ يَقْدِرُ على الاحتمال ، وطلبَ مِنّي أن أستدعيَ اثنين من الخدمِ ، وتوجّهَ إلى المطبخِ فلحقتُ به . وعند دخوله المطبخَ كان « هيثكليف » و « كاترين » قد عادا إلى الشّجار ، فقال ادجار له : « لقد صبرتُ عليك كثيراً .. لقد سمحتُ لكَ بالدّخولِ هنا لأن كاترين أحبّتْ ذلك ، لكنّكَ تُسبِّبُ الشرَّ

حتى لأحقرِ المخلوقات ، ولذلكَ أطلبُ منكَ أن تُغادِر هذا البيتَ حالاً ، وبصورةٍ نهائية ! »

وما كان من هيثكليف إلا أن نظرَ إليه بازدراء ثمَّ قال لكاترين : « إن هذا الحَمَلَ يهدِّدني كما لو كان أسداً . »

وهنا طلبَ منّي سيّدي أن أحضِر الرّجُلينِ ، فأحسّت كاترين بذلك ، فأقفلت بابَ الغرفةِ خلفي وقالت لزوجِها : « إنْ كنتَ لا تجرؤ على مهاجمته . فاعتذِرْ إليه ، أو دَعْه يتغلبْ عليك . » فحاول ادجار أن يأخذَ المفتاحَ من يدِها ، لكنها رمتْ بالمفتاحِ الى النارِ ، وانتابت ادجار عند ذلك رجفة وشَحُبَ لونُهُ .

اما هيثكليف فنظرَ إلى كاترين قائلاً : « هنيئاً لك بهذا الجبان يا « كاتي » .. أهو يبكيْ ، أم أنه مُغمىً عليه خوفاً ؟ » ثم دفعَ الكرسيَّ الذي كان يجلسُ عليه ادجار ، فضربَه هذا الاخيرُ على عُنُقِه .

طَلبت سيّدتي من « هيثكليف » أن يرحلَ قبلَ أن يقعَ الشرُّ ، لكنه رفضَ ذلك لأنَّ ادجار ضربَه على عنقِه . وعند هذا دخل البستانيّانِ وسائقُ العربةِ ، فرأى هيثكليف أنَّ من الأفضلِ أن يتجنّبَ معركةً مع ثلاثةِ أشخاص ، فخلع القفلَ الخارجي للبابِ وانطلقَ هارباً .

أُصيبتْ سيّدتي بالعياء الشديدِ بسببِ ما حدثَ ، وطلبتْ منّي أن أوصلَها الى غرفتها . وقالت: « أكادُ أُجَن .. إن رأسي يكاد ينفجر ... لا تدَعي أحداً يلقاني ، فإنني سأكونُ متوحّشة

إذا ازدادَ غضبي ؛ وإذا رأيتِ إدجار ثانيةً هذه الليلة ، قولي له إني على وشكِ أن أُصابَ بمرضٍ قويّ .. أرجو أن أمرضَ لأنّي أريدُ أن أُخيفه بذلك ، وإذا لم أستطعْ الاحتفاظَ بصداقــة هيثكليف ، وإذا انقلبَ زوجي غيوراً حاقداً ، فانّي سأُحطّمُ قلبيْهما ، وذلك بتحطيم قلبي .. يا « نيللي » ، أرجو أن تهتمّي بي اهتماماً أكبــر » .

لم أخبرْ ادجار بما طلبتْ منّي أن أُخبرَه به ، ولكنّه رآها وقال لها بدونِ أن يبدوَ عليه أثرُ الغضب :

« عندي سؤالٌ واحدٌ لك : هل تتخلّيْنَ عنّي أم عن هيثكليف ؟ »

ـ « أرجو ألا تتحدّث في هذا الموضوع . إن اعصابك الباردة لن تضطرب ، لكن أعصابي أنا مضطربةٌ .. إنّي اريدُ أن اكونَ وحيدة . »

ـ « إذا أردتِ أن تكوني وحيدةً الآن ، أجيبيني عن سؤالي هذا .. يجب أن تُجيبي عنه . »

ـ « اتركني ، فأنا لا اقوى على مجرّدِ الوقوف .. أريدُ أن أظلَّ وحيــدة . »

ثم أخذتْ تصرُّ بأسنانِها وتضربُ رأسَها بأحدِ المقاعدِ ، فطلبَ منّي السيّد لينتون أن أجيئها بكوبٍ من الماء .

بدا ادجار فزِعاً ، فهمستُ قائلة : « ليس في المسألةِ شيءٌ خطيرٌ » ، مع أني كُنت أنا خائفةً أيضاً . ثم أخبرتُه أنها أرادتْ إفزاعَه بمرضِها ، فسمعَتْني ، وانتفضت من مكانها وحبستْ

نفسها في غرفتها مدّةَ ثلاثةِ ايّام ، دونَ أن تقبلَ تناولَ الطعامِ ، اعتقاداً منها أنّ هذا سيجعلُ زوجها يأتي اليها معتذِراً طائعاً . إلا أنّ إدجار لازمَ مكتبه في هذه الفترة ، وقابلَ « ايزابيلا » وهدّدها بأنّه سيقطعُ علاقتَه بها إذا هي شجّعَت هيثكليف بعدَ ذلكَ اليوم .

(١٢)

في مساءِ اليومِ الثالثِ ، فتَحتْ « كاترين » بابَ غرفتها وَطلَبَتْ منّي شيئاً من الطعامِ والشايِ ، فجئتُها بما طلَبتْ . ثم قالت لي : « ما يفعلُ ذلك البليد ؟ » فقلتُ : « إن كُنتِ تعنينَ السيّدَ لينتون ، فهو في حالةٍ جيّدةٍ ، يقضي أوقاتَه بين كُتُبِــه »

ما كان يجبُ أن أتحدّث إليها هكذا لو أني كنتُ أعلمُ أن حالتَها سيئةٌ ، لكني كُنتُ أُفكّرُ أنها تُضخّمُ مسألةَ مرضِها .

ثم قالتْ : « إذاً هو بين كُتُبه بينما أنا على حافةِ قبري . يا إلهي ، هل يعلمُ كم قد تغيّرتْ . لو أنّ موتي يقتلُه لقتلتُ نفسي » .

لم تتحمّل « كاترين » ما قلتُ لها عن عدمِ اهتمامِ إدجار بها ، فاضطربت وزادتِ الحمّى المصابةُ بها ، وتذكّرتْ مرضَها الأخيرَ وقولَ الطبيبِ إن علينا ألاّ نُخالفَ رغباتِها .. ثم مزّقَتِ الوسادةَ بأسنانِها وأخذت تتسلّى بها ، كالاطفال ،

بجذبِ الريشِ منها خارجاً ، وقالت : « أتمنّى أن أعودَ طفلةً في بيتنا القديمِ فأسمعَ صوتَ الريحِ تعصفُ بالاشجار » .

ثم سألتني فجأة : «كم مضى على اعتزالي في هذه الغرفة ؟ »

فقلت : « ليالٍ اربع » ، فقالت لي : « كأنها كانت عدداً من الساعات المرهقةِ .. أذكرُ أن الظلام أحدقَ بي حا أوصدتُ بابَ غرفتي ... لم أقدرِ أن أشرحَ لإدجار أنني سأُصابُ حتماً بنوبةٍ من المرضِ إذا ظلَّ يزعجني .. أرجوكِ أن تفتحي زجاجَ النافذةِ ، بل سأفتحه بنفسي » .

ثم قامتْ من فراشها وفتحتِ النافذةَ مُتحدِّيةً شراسةَ الريحِ ، فحاولتُ إرجاعَها إلى الفراشِ ، لكنها قاومتني على الرغمِ من مرضِها . وبينما أنا أبحثُ عن شيءٍ أغطيها به ، دخل السيّدُ لينتون فقلتُ له إنها مريضةٌ وطلبتُ منه أن يعاونَني على إرجاعِها إلى الفراش .

ذُهِلَ السيّدُ « لينتون » للتغيُّرِ الذي أصاب « كاترين » ، وطلب منّي أن أُقفلَ النافذةَ ، ثم احتضنَها بذراعيهِ فصاحتْ غاضبةً :

— « أتيتَ اذاً يا ادجار لينتون ؟ إنّكَ من الأشخاصِ الذين لا يظهرون عندما يكونُ غيرُهم في حاجةٍ إليهم .. سوفَ تندمُ يومَ أكونُ راقدةً في قبري ، قبلَ أن ينتهيَ الربيع . »

— « ألمْ أعدْ أعني شيئاً لكِ يا كاترين ؟ هل تحبّين الحقيرَ هيثكليف ؟ »

— « إذا ذكرتَ هذا الاسم فسأُنهي كلَّ شيءٍ بأن أرميَ

نفسي من النافذة .. إرجع إلى كُتُبِكَ ، فأنا لا أُريدُك الآن ! »

تدخّلتُ قائلةً : « إنها كانت تهذي كلَّ الليل .. يجب أن نكونَ حذرينَ ولا نضايقَها » ، فأجابني بقوله : « لا أريد سماعَ النصائحِ منكِ ، إنّكِ تعلمينَ طبعَ سيّدتِك ، وقد شجّعتِني أن أعاديَها ولم تُخبريني بحالتها طوالَ هذهِ الأيامِ الثلاثة .. إن تصرّفَكِ كان بلا رحمةٍ أو شفقة » .

أخذتُ أدافعُ عن نفسي لأني لا أُحبُّ أن أتحمّلَ اخطاء غيري ، لكنني قرّرتُ أنْ آتيَ بمساعدةٍ طبّيّةٍ للسيّدة ، فهممتُ بالخروج ، ولما وصلتُ الى الحديقة رأيتُ كلب ايزابيلا الصغير مربوطاً بمنديلٍ ، فأسرعتُ لفكِّ وثاقه وسمعتُ وقعَ حوافرِ خيلٍ من مسافةٍ قريبةٍ ، ولكنني كُنتُ مشغولةَ البالِ إلى درجةٍ لم أفكرْ معها بغرابةِ هذهِ الحادثةِ في الساعةِ الثانيةِ من بعدِ منتصفِ الليل .

وصلتُ إلى منزل الدكتور كينيث واصطحبتُه معي ليقومَ بفحص « كاترين » وبعدَ أن فحصها قال لـ «إدجار» إنها ستتماثلُ للشفاءِ إذا أمّنّا لها الراحةَ والسكينةَ التامتين . وقال الطبيب لي إنّ الخطرَ لا يبلغُ حدَّ الموتِ ، لكنّه قد يسبّبُ لها ضرراً دائماً في دماغِها .

كنّا جميعاً مشغولي البال على كاترين ، حتى إني انا وإدجار وجميعَ الخدم سهرنا إلى ساعةٍ متأخرةٍ جداً . أما ايزابيلا فأعتقد أنها ظلّت نائمةً حتى إن إدجار انزعجَ من قلّةِ اهتمامِها بكاترين .

وسمعنا صُراخَ إحدى الخادمات ، ولما استفسرنا عن الأمرِ قالتْ متعجبّةً : « لقد هربتْ سيّدتي الصغيرة ... ولقد هرب هيثكليف معها .. » والواقعُ أن هذه الخادمةَ كانتْ في القرية وسمعتْ هناكَ أنّ رجلاً معه امرأةٌ توقفَ بحانوت الحدّاد ليُصلحَ حدوةَ حصانِه ؛ ولم يكنْ هناك مجالٌ للخطأ : لقد كان الرجلُ هو هيثكليف وبصحبته ايزابيلا .

ولمّا سألتُ إدجار إن كان علينا أن نبحثَ عنها ونُرجِعَها قال : « لقد تركَتِ البيتَ طوعاً واختياراً ، فلا تُزعِجوني بأمرها .. ومن اليوم فصاعداً ستكونُ أختي بالاسمِ ليسَ غير » .

ولم يعدْ يأتي على ذكرِها إلاّ عندما طلبَ مني أن أجمعَ أغراضَها وأُرْسِلَها لها إلى بيتِها الجديد عندما أعرفُ موقعَه .

(١٣)

استمرَّ غيابُ الهاربين مُدّةَ شهرين . وكانت « كاتي » في ذلك الوقت مُصابَةً بِحُمّى شديدة أعلَمَنا الطبيبُ أنها أثّرت على مُخِّها وأنّها لن تعودَ إلى سابقِ صحّتِها تماماً . وكم كانت فرحةُ إدجار كبيرةً عند ما زال الخطرُ عنها .. لقد برهنَ عن إخلاصٍ كبير لـ « كاتي » ، وظلَّ يرعاها طولَ فترة مرضِها حتى إن صحّتَه هو أصبحتْ في خطر .. لقد كانتْ حياتُه

تعتمدُ على حياتِها ، وكنّا جميعاً نأملُ أن تَلِدَ له « كاتي » مولوداً يَرِثُ أموالَه من بعدِه كي لا تقعَ هذه الأموالُ في قبضةِ رجلٍ غريب .

ثمّ أخذت « كاتي » تبرأُ من مرضِها ، وكان سيّدي يحيطُها بعناية فائقة ، فيضعُ الزُّهورَ على وسادتِها ويحرصُ على راحتِها وهدوءِ أعصابها .

أما ايزابيلا فقد أرسلتْ إلى أخيها ، بعد أسابيعَ من رحيلها ، رسالةً مُقتضبةً تُعلِمُه فيها بزواجها بـ « هيثكليف » ، وتطلبُ منه أن يُسامحَها على ما فعلتْ . لكنّ سيّدي لم يُجِبْ عن هذه الرسالة . وبعد أسبوعينِ وصلتني رسالةٌ منها ، وها هو نصُّها الكامل :

« عزيزتي نيللي ،

وصلتُ أمسِ إلى مرتفعات وذرنج وعلمتُ أنّ كاترين مريضةٌ ؛ ولما كان أخي لا يُريدُ أن يكتُبَ لي ، كتبْتُ إليكِ لتُخبري ادجار أنّ قلبي قد حنّ إلى « ثراشكروس جرانج » حالما غادرتُه .. ولكني لا أستطيعُ اللّحاقَ بقلبي .

أخبريني بمن تزوّجتُ أنا ! هل تزوّجتُ إنساناً مجنوناً يا « نيللي » ؟ لقد وصلتُ إلى المرتفعاتِ بصحبتِه عند الغُروبِ ، فاستقبلني « جوزيف » بنظراته الحادّةِ البَشِعة ، وظلَّ « هيثكليف » يُحدّثُه ، ودخلتُ إلى المطبخِ فوجدتُه شديدَ القذارة . ثم لمحتُ صبيّاً صغيراً يُشبِهُ كاترين في عينيْه وفمه ، فحاولتُ أنْ ألاطفَه فشتمني وأطلق عليّ كلبَه .

ثم تجوّلتُ في فناء الدّار وقرعتُ أحدَ الابواب ، ففتحه رجلٌ نحيلٌ ، طويلُ القامةِ ، رثُّ الملابس ، تبدو عليه علامات المرض .. إنه شقيق كاترين .. دخلتُ إلى الغرفةِ ثمّ سألتُه إن كان في إمكانِ إحدى الخادماتِ أنْ ترشدني إلى غرفةِ النومِ ، فقال ، بعد أن كرّرتُ سؤالي :

ـ لا توجدُ خادماتٌ في البيت ، عليكِ أن تهتمّي بنفسكِ .

فبكيتُ قائلةً : وابنَ ينبغي أن أنامَ إذاً ؟

قال : سيرشدُكِ جوزيف إلى غرفةِ هيثكليف ، ولكن كوني حذِرةً وأوصِدي باب الغُرفة .

ولما سألتُه عن سببِ ذلكَ أخرجَ من معطفِه مُسدّساً ربَطَ به سكّيناً ذات حدّينِ وقال :

ـ قد لا أستطيعُ أن أمنعَ نفسي الليلةَ وأحاولَ فتحَ الباب . فإذا كان البابُ مفتوحاً ، فقدْ قُضيَ على هيثكليف .

ـ وماذا فعل لكَ « هيثكليف » ؟ أليسَ من الحكمةِ أن تطلبَ منه مغادرةَ المنزل ؟

ـ لا .. هل تُريدينَ أن أخسرَ كل أموالي دونَ ان تكونَ لي فرصةٌ لاسترجاعِها ؟ وهل تُريدينَ أن يُصبحَ هيرتون متسوّلاً ؟ أُقسمُ انني سأستعيدُ كلّ أموالي ؛ سأسترجعُ منه ذهَبَه .. ودمَه ايضاً .

أنتِ تعرفين ، يا « نيللي » ، عاداتِ سيّدِكِ القديم «هندلي» . إنه شبهُ مجنون ، وقد كنتُ اخافُ أن أدنوَ منه .

كانت غرفةُ « هيثكليف » مغلقةً ، فنِمتُ على كرسيٍّ في

غرفةِ الجلوسِ حتى جاءَ هيثكليف ليخبرَني أن كاترين مريضةٌ ، وأنّ إدجار سببُ مرضِها ، وقال إنّه سينتقمُ مني بدلاً من أخي إلى أن يقعَ أخي في قبضته .

إنني تعيسةٌ ، يا « نيللي » .. لقد كنتُ غبيّةً .. أرجو ألاّ تُعْلِمي أحداً بهذهِ الرسالةِ ، كما أرجو أن تأتي لزيارتي في أسرعِ وقتٍ ، فأنا في انتظاركِ ... » .

ايزابيلا

(١٤)

وبعد فراغي من قراءةِ الرِّسالةِ أخبرتُ سيّدي برغبةِ شقيقتهِ في أن يصفحَ عنها فقال ببرودة : « ليس عندي ما أصفحُ عنها من اجلِه .. يمكنكِ الذهابُ إليها اليومَ وإبلاغُها أنّنا قد افترقْنا الى الأبد . »

وصلتُ الى المرتفعاتِ فوجدتُ المنزلَ مهملاً إلى درجة فقد معها نضارتَه وإشراقَهُ السّابقين .

لم يكن هندلي موجوداً ، أمّا هيثكليف فكان جالساً ، ولما رآني وقفَ ورحّبَ بي بلطف طالباً مني الجلوس . ثم دخلتْ « ايزابيلا » متوقّعةً ان اسلّمها رسالةً من أخيها فأومأتُ لها برأسي فلم تفهمْ ما أريدُ وهنا تنبّه هيثكليف إلى ذلكَ فطلبَ مني أن أسلّمَها ما أريدُ فقلتُ إنه ليس معي شيءٌ لأسلّمها اياه ، قلتُ لها إنّ أخاها صَفَحَ عنها ولكنّهُ يفضلُ أنْ يقطعَ

العلاقةَ بينَه وبينَ أهلِ هذا البيت .

وأخذ هيثكليف يسألُني عن كاترين فقلتُ له ، إنَّها تتماثل للشفاءِ لكنَّ مظهرَها وشخصيتَّها قد تغيّرا إلى حد بعيد .. وعلى من يعيشُ معها أن يشعرَ تجاهَها بالشفقة والمسؤوليّة .

فقال : « وهل تعتقدينَ أني سأتركُها لشفقة سيّدِك ومسؤوليتّه عنها ؟ أُريدُ أن تعديني يا « نيللي » بأن تساعديني على مقابلتِها ، فما رأيُك ؟ »

قلتُ : « إن شجاراً آخرَ بينَك وبينَ سيّدي سيقضي عليها حتماً . »

فاستطردَ يقولُ : « ولكنّنا سنتجنَّبُ ذلكَ بمساعدتك .. لو كنت أنا مكانه وكان هو مكاني ، لما كُنْتُ أتعرّضُ له إذا كانت هي تحبُّ حضورَه .. أما إذا زهدت في حبِّ حضورِه فعندئذ أُهشّمُ رأسَه تهشيماً . »

فقاطعتُه قائلةً : « ومع ذلكَ فإنّكَ تُعرّضُ شفاءَها للخطر ، بأن تعيدَ نفسَك الى ذاكرتها بعد أن نسيتْك تقريباً . »

قال : « بل انت تعلمين أنها لم تنسَني ، وأنها لا يمكنُ أن تُحِبَّ إدجار كما تحبُّني .. إنه يكادُ يكونُ بالنِّسبةِ لها كحصانها أو كلبها . »

وكأنما عادتْ ايزابيلا إلى الحياة فجأةً فصرختْ تقولُ : « لا .. إن كاترين و « إدجار » يحبُّ واحدُهما الآخرَ أشدَّ الحبِّ .. وأنا لا أرضى أن يُهان اخي على مَسْمَعٍ مني . »

فقال هيثكليف حانقاً : « وأخوك مولع بك أشدَّ الولع ..

أليس كذلك ؟! »

وعند هذا الحدّ قلتُ لهيثكليف : « لقد اعتادتْ سيّدتي الصغيرةُ — إيزابيلا — أن تكونَ مُرفّهةً مخدومةً .. ولو لم تَكُنْ عاطفتُها فياضةً لما تركتْ منزلَها وسعادتَها لتعيشَ في مثلِ هذا المكانِ المقفرِ الموحِش . »

فأجابني : « لقد تخلّتْ عن كلِّ ذلكَ لاعتقادِها أنني ذلكَ البطلُ الخياليُّ الذي تقرأ عنه في الرواياتِ .. لكنّها نجحتْ أخيراً في أن تعرفَني وتكتشفَ حقيقتي ، والواقعُ أنّني لم أتظاهرْ يوماً بأنني أُحبُّها . ولقد كانَ أوّلُ شيءٍ فعلتُه عندَ خروجي من « ثراشكروس جرانج » أنّني حاولتُ أن أشنقَ كلبَها .. أخبري سيّدك يا نيللي أنني لم ألْقَ في حياتي أحقرَ من أختِه وأضعفَ منها نفساً .. إنّها تجلبُ العارَ ، حتى لاسمِ لينتون . »

فانفجرتْ ايزابيلا صارخةً : « إنَّه يقول إنه تزوَّجني لكي يستطيعَ السيطرةَ على شقيقي ، لكنَّه لن يفعلَ ذلكَ .. إنني اتمنّى أن يقتلَني ، فإني أتصوَّرُ أنَّ متعتي الوحيدةَ الآنَ هي أن أموت .. أو أن أراه يموت . »

فقال ببرودة : « ستذكرين كلامَها يا نيللي إذا استدعتْك المحكمةُ يوماً ... »

ثم أخرجها من الغرفةِ بقوةٍ وأخذ يتمتمُ : « لا رحمةَ عندي .. لا رحمةَ عندي .. » .

هممتُ بالخروجِ فاستوقفَني وقالَ إنَّه إما سيَقنعُني أو

سيجبرني على مساعدته لرؤية كاترين . وبعد مناقشة طويلة
اتفقت معه على أن أسلّم سيّدي رسالة منه ، وأن أعلمه متى
سيغيب سيّدي عن البيت ، ليحضر هو إذا وافقت على ذلك .

(١٥)

وفي احدى الأمسيات لمحت هيثكليف في الحديقة ، فلم
أجرؤ على الخروج لأنّ رسالته كانت لا تزال في جيبي ،
وكنت قد قررت ألا أسلّمها إياها إلا إذا كان سيّدي خارج
المنزل .

وبعد ايام سنحت الفرصة لتسليمها الرسالة . كانت ترتدي
ثوباً ابيض وقد غطّت مسحة من الشحوب نعومة وجهها
الناعس الذي كان يشير إلى أنّ الفناء قد كتب على صاحبته .
سألتني أن أفتح الرسالة ، ففتحتها وسلّمتها إياها فتركت
الرسالة تسقط ، فأرجعتها إليها ، وبعد انتظار قلت لها : « هل
تحبّين أن أقرأها ! إنها من السيّد هيثكليف .. » .

لمحت عندئذ اضطراباً في وجهها ، وكأنها كانت تحاول
أن تجمع أفكارها المشتتة ، فرفعت الرسالة وبدا أنها تقرأها ،
حتى إذا نظرت إلى التوقيع تنهّدت بلهفة وأشارت الى الاسم
ونظرت إليّ ملياً وكأنها تريد أن تستفسر عن شيء فقلت لها :
« إنّه يريد أن يراك .. لعلّه في الحديقة الآن متلهفاً لسماع
جوابك » .

وبعد قليل سمعنا وقع أقدام في الدار ، فنظرت كاترين
بلهفة شديدة الى مدخل غرفتها ، فدخل هيثكليف ولفّها
بذراعيه .

ظلّ هيثكليف على هذه الحال مدة خمس دقائق وكأنه
لا يتحمل أن ينظر إلى وجهها الذي جعله يدرك أن الموت
ينتظر صاحبته . ثم نطق بأوّل عبارة فقال : « آه يا كاتي ..
آه يا حياتي .. كيف اقدر على احتمال ذلك ؟ » ثم أخذ ينظر
إليها بلوعة وأسى .

وقالت كاترين ناظرة اليه : « لقد حطّمتما قلبي ، أنت
وإدجار ، ثم تأتيان لتطلبا رحمتي وشفقتي .. وكأنما أنتما
بحاجة إلى الرحمة والشفقة ! لن أشفق عليكما فقد قتلتماني ! »
ثم تابعت تقول بمرارة : « ليتني أستطيع أن أظلّ ممسكة بك
حتى نموت معاً .. لن أهتمّ بعذابك ، فأنا أتعذّب أيضاً .. هل
ستنساني ؟ وهل ستكون سعيداً عندما أصير تحت التراب ؟ »

فأجابها هيثكليف : « لا تعذّبيني يا كاترين ! كيف تنطقين
بمثل هذا الكلام وأنت تعلمين أني لست المسؤول عن قتلك ؟
ألا يكفيك أنك إذا نعمت بالراحة الأبديّة سأكون أنا في
منتهى العذاب وستردّد كلماتك هذه في ذاكرتي ؟ »

وازدادت خفقات قلبها قوّة فقالت : « لن أنعم بهذه
الراحة » . ثم صمتت قليلاً حتى استعادت قوّتها وقالت : « لا
أريدك أن تتعذّب أكثر مما تعذّبت . كلّ ما أتمناه ألا
نفترق .. وإذا تردّدت كلماتي في ذاكرتك وأحزنتك ، فثق

بأني سأكونُ أنا حزينةً أيضاً تحتَ التراب .. سامحي إكراماً لي يا هيثكليف ، فأنتَ لم تؤذني قطُّ في حياتك . » .

وقف هيثكليف خلفَ كرسيِّ « كاترين » وحنى رأسَه باتجاهِها فاستدارتْ لترى وجهَه ، فاتجهَ إلى المُستوقَد .

ثم نهضتْ سيدتي بلهفة متكئةً على ذراعِ مقعدِها ، فاستدارَ لينظرَ إليها ثم تقدّمَ نحوَها وشدَّها إلى صدرِه طويلاً . وبعدَ ذلكَ وضعَتْ خدَّها إلى خدِّه فأخذَ يقولُ لها بضراوة : « الآنَ علمتُ كمْ كنتِ قاسيةً عليَّ . لماذا احتقرتِني وغدرتِ بقلبي يا كاتي ؟ لقد قتلت نفسك .. إن التعاسةَ والعذابَ والموتَ ما كانتْ تقدرُ أن تُفرِّقَ بيننا ، ففرّقتِ انتِ بيننا بإرادتِك .. انا لم أحطّمْ قلبَك ، بل أنتِ التي حطّمْتِه ، وبذلكَ حطّمْتِ قلبي معَه .. هل تتصورينَ أنني أُريدُ ان اعيشَ بعدكِ ؟ هل أستطيعُ أن اعيشَ وروحي ليستْ حيّةً ؟ »

أخذت كاترين تبكي وتقولُ : « أتركني وحدي ! إذا كنتُ قد اخطأتُ فانّي أموتُ الآنَ جزاءَ ذلك .. لقد تركتَني أنتَ ايضاً وسامحتُك ، فسامحني أنت ! » فأجابها بقوله : « يصعبُ ذلكَ ، ولكنني سأسامحُك على ما فعلتِ لي .. إني أُحبُّ قاتلي ، أما قاتلُك فكيف استطيعُ أن أُحبَّه ؟ »

وظلاَّ متعانقَين يبكيان . ونبّهتُهما أنّ سيّدي سيحضرُ بعدَ نصفِ ساعةٍ فلم يُبْديا حراكاً . ثم رأيتُ عدداً من الخدم قادمينَ الى المنزل ، وبعد قليلٍ وصلَ السيدُ « لينتون » فقال هيثكليف : « يجبُ أن أرحلَ يا « كاتي » ، ولكني سأراكِ قبلَ

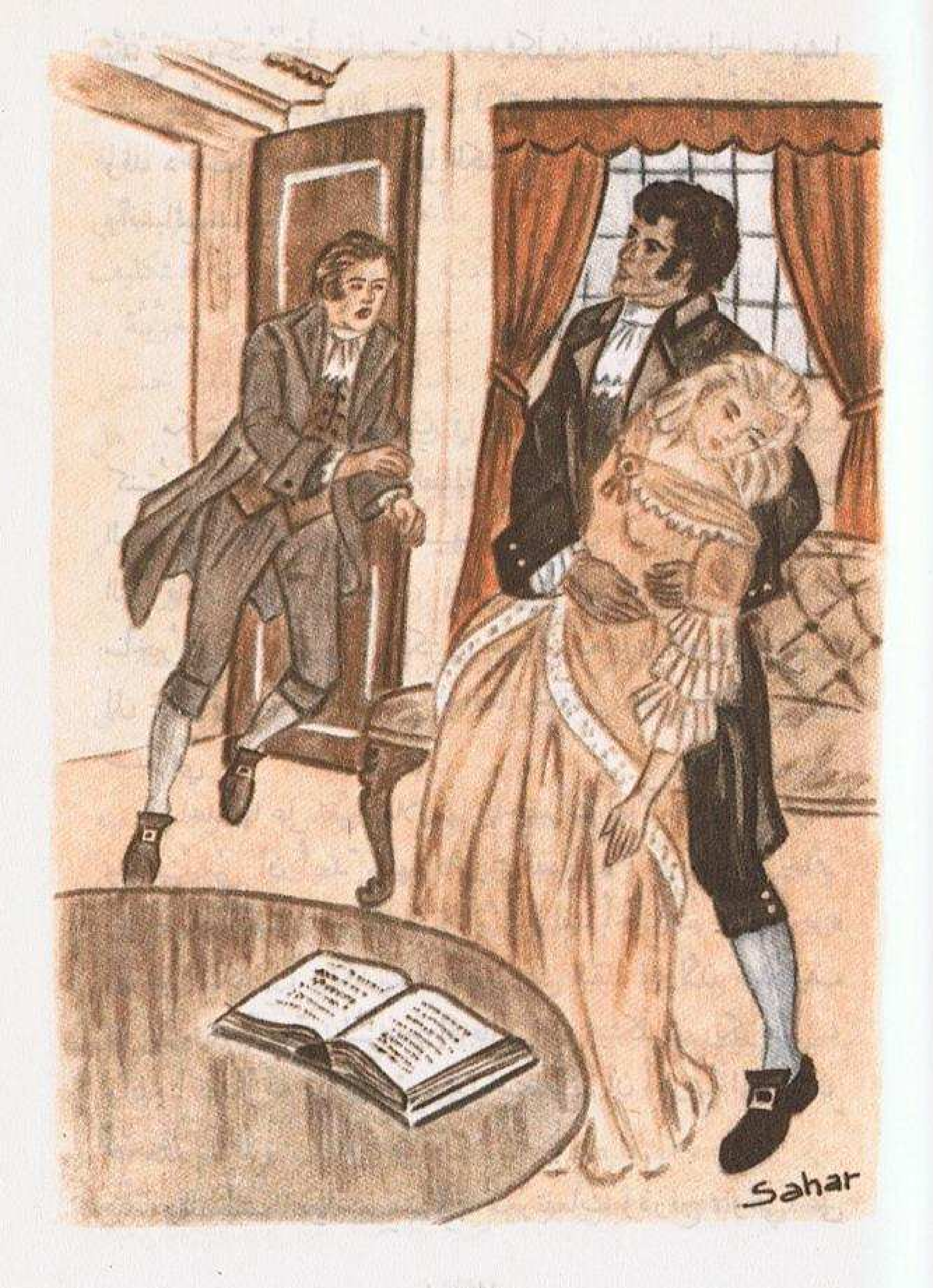
أن تنامي .. سأكون قربَ النافذة » . فأمسكتْ بيدِه تقولُ : « لا تذهبْ ولو دقيقةً واحدةً .. إنها المرّةُ الاخيرة » . وكان هيثكليف يستعدُّ للرحيلِ ، لكنّه قرّرَ البقاءَ بعد أن سمعَ كلامَها هـذا .

وهنا قرّرتُ أن أتدخّلَ فقلتُ له : « عليكَ أن ترحل .. إنها لا تعرفُ ماذا تقول .. لقد قُضيَ علينا جميعاً » . ثمَّ نظرتُ إلى كاترين فرأيتُ يديْها مرتجفتينِ ورأسَها يهوي إلى الخلف فظننتُ أنَّه قد أُغمِيَ عليها أو ماتتْ . ودخلَ سيّدي في هذه اللحظة وانقضَّ على زائره بحنقٍ شديد فقالَ له هيثكليف : « ساعدْها أوّلاً .. وبعد ذلك تهتمُّ بشأني »

خرج هيثكليف إلى غرفةِ الجلوسِ ، وتعاونتُ مع السيّد لينتون على إعادةِ كاترين إلى وعيها . ونسيَ سيّدي ضيفَه لانشغالِه الشديدِ بسيّدتي وقلقِه عليها ، فذهبتُ إلى هيثكليف وطلبتُ منه الرحيلَ فقال : « سأبقى في الحديقة .. وإن لم تعلميني عنها قبلَ الصباحِ فاني سأدخلُ البيتَ سواءٌ أكانَ إدجار موجوداً أم غيرَ موجود » .

(١٦)

وفي منتصفِ تلكَ الليلةِ وُلِدَتْ « كاترينُ » أخرى ، وكانتْ هزيلةً في الشّهرِ السابعِ من الحمْل . وبعد ساعتينِ ماتتْ والدتُها . وكان حزن إدجار شديداً ، بخاصة أنْ ليسَ له وريثٌ



ودخل ادغار منزعجاً من ضيفه

ولُمتُ ، بيني وبين نفسي والدَه الذي أوصى بأملاكِه لابنته ، بعد أن يموت إدجار بدلاً من أن يوصيَ بها لأولادِ ابنِه .

وعند الشروقِ نزلتُ إلى الحديقةِ لأُخبرَ هيثكليف فقالَ لمّا رآني : « لقد ماتتْ ... أعرفُ ذلك .. ضعي منديلكِ جانباً فهيْ لا تريدُ دموعَكم » . وبعد جهادٍ مرير قال : « كيف ماتت ؟ » فأشفقتُ عليه وادركتُ ان قلبَه وعواطفَه لا تختلفُ عن قلوبِ سائرِ الناسِ وعواطفِهم ، فقلتُ : « ماتتْ هادئةً كالحمَلِ الوديـع » .

قال لي : « ألم تذكر اسمي مُطْلَقاً ؟ »

فأجبته : « لم تكن واعيةً منذ تركتَ الغرفة .. إنَّها ترقدُ وعلى وجهِها ابتسامةٌ رقيقةٌ .. أرجو أن تكونَ في العالمِ الآخرِ بمثلِ هذهِ الرقةِ والوداعة . »

فقال بعنفٍ مروعٍ : « بل أرجو أن تتعذب .. لقد كانتْ كاذبةً حتّى النهاية . إن لي دُعاءً واحداً اكرّرُه حتّى يكل لساني : أن لاتعرفَ « كاترين أرنشو » الراحةَ قبلَ أن أموت .. لقد قُلت يا « كاترين » إنني قتلتُكِ ، فلْتُطارِدْني روحك ولْتَجْعَلْني مجنوناً .. ولكنْ لا تتركيني هنا أَبحثُ عنكِ فلا أجدُكِ .. يا إلهي ، إنّي لا أستطيعُ العيشَ من دونِ روحي . »

ثم أخذَ يضربُ رأسَهُ بجذعِ الشجرةِ التي كانَ يتّكِيءُ عليها ، وأمرني بالانصرافِ فأطعتُه .

وتعيَّنَ يومُ الجمعة موعداً لدفنِ « كاترين » ، وقد دعي أخوها لحضورِ الدّفنِ ، لكنَّه لم يَظْهر قطّ ، أمّا ايزابيلا فلم

تُدْعَ . وكنتُ قد سمحتُ لـ « هيثكليف » بالدخول – بينما كان سيِّدي يخلد الى الراحة – ليُلقي نظرةً أخيرةً على كاترين وقد دُفنتْ في إحدى زوايا الكنيسةِ بعيداً عن مقابرِ عائلتها وأنسبائِهـا .

(١٧)

مكثَ سيِّدي في غرفتِه في اليومِ التالي للدَّفنِ . وبينمـا كنتُ في غرفةِ الجلوسِ والطفلةُ الصغيرةُ على ركبتيَّ ، فُتِـح البابُ فجأةً وإذا بي أمامَ السيِّدة هيثكليف التي اندفعتْ باتجاهِ النارِ قائلةً : « لا تفزعي ، فقد جئتُ من المرتفعات ركضاً . سأخبرُك بكلِّ شيءٍ .. ولكن أرجو أن تُعِدّي العربةَ لتنقلَني إلى جيمرتون ، وأن تكلّفي خادماً باحضارِ بعضِ ملابسي من غـرفتي » .

ساعدتُها على تغييرِ ملابسها واحضرتُ لها كوباً من الشاي ، وطلبتْ مني أن أُبعدَ عنها كاترين الصغيرة ، ثم خلعتْ خاتمَ زواجِها وألْقتْ به في النارِ قائلةً : « لقد أُجبِرْتُ على اللجوءِ إلى هذا المكانِ ، ولكنّني لا أجرؤ على البقاء فيه لأن هيثكليف قد يأتي باحثاً عنّي ليُزعجَ إدجار . إن هيثكليف يكرهُني ، وأنا متأكِّدةٌ أنه لن يَلحقني إذا استطعتُ أن أهربَ الى مكانٍ أمـين . »

ولما سألتُها عن سببِ تركِها « مرتفعات وذرنج » وهي على

هذهِ الحالةِ قصَّتْ عليَّ ما حدث : « لقد أُجْبِرْتُ على ذلكَ لأنني قدَرتُ أن أُثيرَ غضَبَه . فمنذ نهارِ السّبتِ الماضي وهو يخرجُ كلَّ ليلة ثمَّ يرجعُ في الصباحِ ويقفلُ بابَ غُرفته . وليلةَ أمسِ ظللتُ أقرأُ حتّى ساعةٍ متأخرةٍ ، وجلسَ هندلي قبالتي وهو يبدو أكثرَ هُدوءاً من عادتِه . ثم سمعتُ صوتَ هيثكليف عند بابِ المطبخِ ، وقد رجعَ بسببِ سوءِ الأحوالِ الجويّةِ ، وكانَ البابُ مقفلاً فقالَ هندلي: « سأُبقيه في الخارجِ مدةَ خمس دقائقَ .. إنَّ لنا حساباً نريدُ أن نُنهيَه مع هذا الرجل .. هل تريدينَ أن تتعذَّبي دونَ أنْ تنتقمي منه ؟ »

قلتُ: « إنّني أتمنّى أن أنتقمَ منهُ دونَ أن أُؤذيَ نفسي ، لكنَّ العنُفَ والخداعَ ينقلبانِ على صاحبهِما دائماً » ، فقالَ : « لن أسألك أن تفعلي شيئاً . ولكن ابقي صامتةً هادئـةً .. ستصبحين امرأةً حُرَّةً قبلَ أنْ تَصِلَ عقاربُ السّاعةِ الى الواحـدة » .

ثُمَّ أخرجَ مسدَّسَه المربوطَ بسكّينه ، فانتزعتُه منه وامسكتُ بيدِه وحذَّرتُه قائلةً : « لن أَسكتَ .. يجبُ ألاَّ تَمَسَّهُ ! » فقالَ : « لقد قرَّرْتُ أن أضعَ النهاية .. » .

ولما وجدتُ أن لا جدوى من الصِّراعِ معه ناديتُ بأعلى صوتي ليسمعَني هيثكليف: « لا تدخلْ إلى هذا المكان .. ان السيِّدَ « أرنشو » يريدُ أنْ يرميَك بالرّصاص » .

أمرني « هيثكليف » بأن أفتحَ له البابَ ، ولما لم أفتحْهُ حطَّمَ النافذةَ وأطلَّ بوجههِ الأسودِ يريدُ الدُّخولَ ، لكن

المسافة الضيّقة بين قضبان النافذة لم تسمح له بالدخول فسألني أن أُدخله فقلتُ: «لا يمكنني أن أرتكب جريمة.. إن هندلي يريد قتلك. لو كنتُ مكانك لما باليتُ بسوء الطقس، ولذهبتُ إلى قبرها واستلقيتُ بجانبه حتى أموت ميتة الكلب الأمين».

وما إن أتممتُ كلامي حتى همّ «أرنشو» بالهجوم على هيثكليف، لكنّ الأخير أمسك بسلاح «أرنشو» وانطلقتْ رصاصة مدوّية في حين أن السكّين أطبقتْ على يد «أرنشو». ثم تناول هيثكليف حجراً كبيراً وحطّم قضبان النافذة ووثب داخلاً.

وكان «أرنشو» قد خرّ أرضاً والدمُ ينزفُ منه، فركله هيثكليف مُمسكاً بي كي لا أنادي «جوزيف». ثم أفلتني وضمد جراح «أرنشو» بقساوة، فأخذتُ أبحثُ عن جوزيف فلما رآه هيثكليف قال: «إنّ سيّدك مجنونٌ، وإن ظلّ حياً شهراً آخر فسأرسلُه إلى مصحّ عقلي»، ثم جاء إليّ واخذ يهزّني حتى اصطكّتْ أسناني وكان يقول: «وأنتِ تساعدينه ضدّي، أليس كذلك؟»

ولما أفاق هندلي من غيبوبته لامه هيثكليف على سكره ونصحه بالرجوع الى سريره.

في اليوم التالي كان «أرنشو» جالساً قرب النار يقاوم مرضاً شديداً، في حين بدا هيثكليف متعباً وقد أضرّ بعينيه البكاءُ وقلةُ النوم. ولو أنّ شخصاً غيره كان يتألّم لكنتُ أُصبتُ

بالحزن، لكنّني كنتُ مسرورةً لعذابه. وأردتُ أن أزعجه فقلتُ لـ«هندلي» بعد أن طلب منّي كوب ماء: «لقد ركلك عدوُّك ليلة أمس، وألقى بك أرضاً.. ألا يكفي أنه قتل واحداً منكم؟ إنّ كلّ من في «ثراشكروس جرانج» يعرفُ أنه لولاه لكانتْ اختُك حيّةً الآن.»

أثار هذا اهتمام هيثكليف فبكى، وأخذتُ أضحكُ فقال: «أُغربي عن وجهي!»، فتابعتُ قائلةً: «لو أنّ كاترين المسكينة وثقتْ بك وقبلتْ أن تحمل لقب «السيّدة هيثكليف» المخزي لكانتِ الآن في مثل حالة أخيها ولما احتملتْ تصرفاتك المخزية بهدوء».

وعند ذلك تناول هيثكليف سكّيناً من على الطاولة ورماني بها فأصابتني تحت أذني، فلم أُكملْ ما أردتُ أن اقوله، وقفزتُ إلى الباب هاربةً عبر المستنقعات إلى هذا المكان؛ وإنني افضل أن اعيش طوال عمري في العذاب على أن اقضي ليلةً واحدةً أُخرى تحت سقف مرتفعات وذرنج..

توقفتْ «إيزابيلا» عن الكلام، ثم نهضتْ وقبّلتْ صورة إدجار وكاترين على الحائط، ثم قبّلتني وانصرفتْ دون أن تعمل بنصيحتي بالبقاء مُدّةً أطول.

لقد رحلتْ ايزابيلا إلى الابد، وإن كانتْ تراسلُ أخاها بعد أنْ استقرّتِ الأمور. واعتقدُ أنّها سكنتْ في الجنوب، بالقرب من «لندن»، وقدْ وضعتْ هناك طفلاً أسمته «لينتون» بعد هربها ببضعة أشهر. وقد علم «هيثكليف»

بمكان إقامتها كما علم بأمر الصبي ، لكنه لم يذهب في إثرهما ، مع أنه كان يسألني عادة عن الصبي قائلاً : « سأحصل عليه يوم أريده . » ومن حسن الحظ أن أم الصبي ماتت قبل ذلك .

* * *

قلّما كان السيد لينتون يغادر منزله بسبب حزنه ، ولأنه لم يكن يريد أن يصادف هيثكليف بحال من الاحوال فقد كانت حياته منعزلة ، وكان يتردد باستمرار لزيارة ضريح زوجته غير أن وحدته بدأت تزول لتعلقه بابنته التي كان يناديها « كاتي » تمييزاً لها عن أمها كاترين .

أما « هندلي أرنشو » ، فقد توفي بعد ستة أشهر من وفاة أخته ، ولم يكن قد تجاوز السابعة والعشرين من عمره . وقد أردت الذهاب إلى المرتفعات للقيام بواجبي نحو الميت ، فمانع سيدي بادىء الأمر لكنه عاد فسمح لي بالذهاب بعد أن ذكرته بواجبي نحو مخدومي السابق ، وبعد أن نبهته أن هيرتون هو ابن شقيق « كاترين » ، وأنه ينبغي أن يكون وصياً عليه .

وبناء على طلب سيدي ، ذهبت لمقابلة محاميه — وكان محامي «هندلي» ايضاً — وسألته أن يرافقني الى مرتفعات وذرنج ، فرفض ذلك قائلاً إن علينا أن نتجنب هيثكليف وعلمت منه ان هندلي مات مديناً وأن ممتلكاته كانت مرهونة كلها .

ولما بلغت « مرتفعات وذرنج » استقبلني جوزيف مسروراً ،

أما هيثكليف فقال أن لا لزوم لوجودي ، ولكنه سمح لي بالمساعدة في التحضير للجنازة ثم ذكرني بأنه هو الذي سيدفع النفقات وأن من غير المجدي أن نهتم بـ « هندلي » كثيراً ، لكنني أردت ان تكون الجنازة محترمة ولائقة .

وفي يوم الجنازة رأيت هيثكليف يحمل هيرتون قائلاً : « والآن أصبحت لي يا صغيري .. سنرى إن كانت الشجرة تنمو معوجة كالشجرة الأخرى اذا كانت الريح التي تتعرضان لها واحدة .. » ، فقلت له إن سيدي أمرني بأن أجيء بهذا الصبي إلى بيته فقال : « أخبري سيدك أنني أريد أن أربي ولداً ، فإذا أخذ هيرتون ، فإنني سأجيء بابني وأهتم بتربيته » . وكان هذا التهديد كافياً لقلقنا على ابن إيزابيلا ، فلم يعد سيدي يتدخل في الأمر .

وهكذا أصبح هيثكليف السيد المطلق في « مرتفعات وذرنج » ، بعد أن أثبت للمحامي أن « هندلي » قد رهن لديه كل شبر يملكه من الأرض ، لإشباع رغبته في الميسر . وبدلاً من أن يكون « هيرتون » سيداً بعد أبيه ، أصبح إنساناً بائساً يعتمد على عدو والده ، ويعمل في بيته كالخادم دون أن يقبض أجراً ، ودون أن يعلم أنه قد ذهب ضحية الأحداث .

القسم الثاني

من رواية السيِّدة « نيللي دين »

﴿ كاترين الثانية ﴾

تقع الحوادث بين عامي ١٧٨٤ و ١٨٠١

(١٨)

كانت الاثنتا عشرةَ سنةً اللاحقةُ أسعدَ سنواتِ حياتي ، وقد كنتُ أرافقُ نموَّ « كاتي » الصَّغيرةِ وكانتْ جميلةً ساحرةً ، وكان قلبُها رقيقاً ومحباً . ولم يعتدْ أبوها على توجيهِ الكلامِ القاسي لها ، كما أنَّه اهتمَّ بتربيتها بنفسِه . والحقيقةُ أنَّها حمَلَتْ معها الدفءَ إلى هذا المنزلِ الحزين .

وحتّى سنِّ الثّالثةَ عشرةَ ، لم تتجاوز « كاتي » بمفردِها حديقةَ المنزلِ ، ولم تكنْ تعرفُ سوى الكنيسةِ التي كانَ يأخذُها إليها والدُها بنفسه . أما « مرتفعات وذرنج » والسيِّدُ هيثكليف فلم تكنْ تعلمُ شيئاً عنهما .

كانت « كاتي » راضيةً بحياتِها ، ولكنَّها كانت تتوقُ أحياناً إلى التنزّهِ باتّجاه الصخورِ التي كانتْ تراها من النّافذة . وقد طلبت

ذلك من والدِها ، لكنَّه لمْ يقبلْ أن يأخذَها إلى هناك ، لأنَّه لمْ يكُنْ يود أنْ يَمُرَّ بـ« مرتفعات وذرنج ».

لقد كان أفرادُ عائلة لينتون رقيقي الطَّبع . وأذكرُ أن ايزابيلا ، قبلَ موتِها ، كانتْ قد بعثتْ الى شقيقها برسالة تخبرُه فيها أنَّها تريدُ رؤيتَه قبلَ أن تموتَ وأن تكلِّفه هو نفسَهُ بالاهتمامِ بابنها . ومع ان سيِّدي لم يكنْ يخرجُ كثيراً من البيت ، فإنَّه ذهبَ للقاءِ أخته وبقيَ ثلاثةَ اسابيعَ خارجَ البيت وأوصاني مراراً بالاهتمامِ بـ« كاتي » وبألاَّ تغادرَ حدودَ الحديقة ، حتّى ولو كنتُ أنا بصُحبتِها .

كنتُ خلالَ فترةِ غيابِ سيِّدي أقومُ بملاعبة « كاتي » وتسليتِها ، ولما كنتُ مشغولةً بعملِ المنزلِ ، اعتدتُ أن أرسلَها لتلعبَ وحدَها داخلَ حدودِ الحديقةِ ، ولم أكنْ أخافُ أن تذهبَ أبعدَ من ذلكَ لأنَّ الابوابَ تكونُ مقفلةً عادةً ، وحتى إذا لم تكنْ مقفلةً فإنَّ « كاتي » لنْ تجرؤَ على الخروجِ بمفردِها .

لكنَّ ظنّي لم يَصْدُقْ ، فقد ارسلتُها يوماً لتلهوَ فلم ترجِعِ إلى المنزلِ في موعدِ تناولِ الشاي ، فأرسلتُ كثيرين ليبحثوا عنها ، ثم خرجتُ بنفسي إثْرَها فأعلمَني عاملٌ لقيتُه أنه رآها في الصباحِ على حصانِها ثم توارت عن نظرِه .

وخطرَ في بالي انَّ « كاتي » قد توجَّهت الى الصخورِ التي كانتْ تُحبُّ رؤيتَها ، فاتجهتُ الى هنالك وأنا خائفةٌ ان يهبط الليلُ قبل وصولي الى الصخورِ . لقد كنتُ خائفةً أشدَّ الخوف وصِرتُ افكِّر فيما سأفعلُ لو أن مكروهاً اصابَها . وبينما أنا

على هذه الحالِ ، رأيتُ أحدَ كلابِ «كاتي» بالقربِ من «مرتفعاتِ وذرنج» ، فقررتُ أن أدخلَ المنزل .

وقرعتُ البابَ ففتحتْهُ لي خادمةٌ قالتْ لي : «إنَّكِ لا شكَّ تبحثينَ عن سيِّدتكِ الصغيرة . لا تخافي ، فإنَّها موجودةٌ هنا بخير» . وعلمتُ منها أنَّ هيثكليف ليسَ موجوداً وانَّه لن يرجعَ قبلَ ساعةٍ من الزَّمن .

كانت «كاتي» الصغيرةُ جالسةً على كرسيٍّ كان لأُمِّها في صغرِها . وكان هيرتون — وقد بلغ الثامنةَ عشرةَ — ينظرُ اليها بشغفٍ وفضول . وحاولتُ أنْ أُخفيَ فرحتي بعثوري عليها فقلتُ لها : «حسناً يا آنستي .. إنَّ هذه رحلتُكِ الأخيرةُ قبلَ عودةِ والدك ..» ، فأجابتْني : «وماذا فعلتُ؟ لن يوبِّخَني أبي لأنَّه لا يغضبُ مثلك ...»

تناولتُ قُبَّعةَ «كاتي» من على الحائط وحاولتُ أن أُلبسَها إيَّاها قبلَ أن ننصرفَ ، لكنَّها أخذتْ تحومُ حولَ الغرفةِ مُدركةً أنَّ أفرادَ البيتِ كانوا إلى جانبِها . ولمَّا بدأتُ أُطاردُها لأُمْسِكَ بها ، أخذَ هيرتون والخادمةُ يضحكانِ منِّي ، وشاركتْهما «كاتي» في ذلكَ فصرختُ بحنقٍ شديد : «يا آنسة كاتي .. لو تعلمين بيتَ مَن هذا لكنتِ سعيدةً بمغادرتِه» .

التفتتْ إلى هيرتون سائلةً : «أليسَ هذا منزلَ والدِك؟»

فأجابها وقد احمرَّتْ وجنتاه خجلاً : «لا ..» .

ثم سألتْهُ : «وهل هو منزلُ سيِّدك؟» فازداد لونه احمراراً . وتابعتْ «كاتي» حديثَها وقالتْ لي : «ظننته ابنَ

صاحبِ هذا المنزلِ . لقد كان يتحدَّثُ بقوله «منزلنا» ، ولم يخاطبني بقولِه «يا آنستي» .. أما كان يجبُ أن يقولَ لي كذلك ما دام خادماً؟» .

أصبحَ لونُ «هيرتون» كالحَ السَّواد ، ثم أمرتْهُ «كاتي» بلهجةٍ متعالية أن يُهيِّئَ لها حصانَها لتنصرفَ فشتمَها وأفهمَها أنه ليسَ خادمَها ، فقالت لي متعجبةً : «كيف يجرؤ هذا يا نيللي على مخاطبتي بهذه الطريقة؟! سأخبرُ أبي بهذا أيُّها الخبيثُ الوقح» . لكنها اخذتْ تبكي لأنَّ هيرتون لم يُظهِرِ اهتماماً بتهديداتها .

ثم قالتْ للخادمة : «اذاً أحضري انتِ لي حصاني» .

فأجابتْها : «مهلاً أيتها الآنسةُ ؛ لن تخسري شيئاً إذا كنتِ مؤدَّبةً . إن هيرتون هو ابنُ خالِك ، وأنا لستُ موظَّفةً عندك .»

سخرتْ «كاتي» من كلامِ الخادمة . وكنتُ مُحرجَةً مما حدثَ ، خاصةً وأنَّ هيثكليف قد يحضرُ في أيةِ لحظة ، وانَّ «كاتي» ستسألُ والدَها حالَ رجوعِه عن أمرِ هيرتون .

وأبدى هيرتون على رغمِ ما حدثَ ، لطفاً واضحاً نحو «كاتي» وذلك بتجهيزِ الحصانِ لها وباعطائها كلباً صغيراً ممتازاً رفضت «كاتي» ان تأخذه ؛ وقد أحزنني أن تنفر من هيرتون المسكينِ الحسنِ المظهرِ الذي يعملُ في المزرعة بنشاط . إن في وجهه أماراتٍ وديعة ، وإن كانت الظروفُ عملتْ على إخفائها . صحيحٌ أنَّ «هيثكليف» لم يكنْ يضربُ الفتى لكنَّه لم يهتمَّ بتعليمهِ القراءةَ والكتابةَ . ولم يحفل بتقويمِ خلقِه وعاداته .

وعلمتُ من «كاتي» أن سببَ دخولِها «مرتفعات وذرنج» أنّها حينَ مرّتْ امامَ المنزلِ هاجمتْ كلابُ «هيرتون» كلابَها، ونشبتْ معركةٌ عنيفةٌ بينهما، تعرّفَ واحدُهما على الآخرِ بسببها. ثم إنَّ «هيرتون» رافقَها إلى الصّخورِ التي كانت تريدُ رؤيتَها. وبعد سماعي روايتَها أخذتُ أُقنعُها بألاّ تُخبرَ والدَها بشيءٍ من هذا لأنّه لا يُحبُّ سُكّان «مرتفعات وذرنج»، ولأنّه قد ينتقم منّي لإهمالي بالطرد، فوعدتني «كاتي» بذلك لانّها لم تكن تستطيعُ أن تتصوّرَني بعيدةً عنها.

(١٩)

استلمتُ رسالةً من سيّدي يُعلمني فيها بموتِ «ايزابيلا» وبموعدِ رجوعه إلى المنزل. وكم كانت فرحةُ «كاتي» كبيرةً عندما علمتْ بأنَّ والدَها سيرجعُ قريباً، وأنّه سيصطحبُ معه ابنَ أختِه لينتون.

وجاء اليوم المحدّدُ لرجوعِ سيّدي، وكانت «كاتي» تنتظرُه بلهفة كبيرة. وعند وصولِه قبّلَ ابنتَه وايقظَ «لينتون» الذي كان نائماً في إحدى زوايا العربة ليعرّفَه بابنة خالهِ، وأمسكَ بيدِ كلٍّ منهما ووضعَها في يدِ الآخر. لكنَّ لينتون، بوجهِه الشاحبِ الرّقيقِ، سحبَ يدَه الصغيرةَ من يدِ ابنة خالِه، ثم دخلَ الجميعُ إلى المنزلِ لتناوُلِ الشاي في المكتبة.

أخذتْ «كاتي» تداعبُ «لينتون» وتقبّلُ وجنتيهِ كأنّه

طفلٌ صغيرٌ، وقال لي سيّدي: «سيحلو له العيشُ معنا يا نيللي اذا استطعنا الاحتفاظ به». أما انا فكنتُ أشعرُ أنّ هناكَ أملاً ضئيلاً جدّاً في احتفاظنا به.

وصدقَ ظنّي في الحال، فما كِدتُ أوصلُ الصغيرينِ إلى الطابقِ العلويِّ حتى علمتُ أن جوزيف قد قدمَ وأنّه يريدُ أن يقابلَ سيّدي فاستأذنتُه لأُخبرَ سيّدي بالامرِ، لكنّه لم ينتظرني بل دخلَ إلى الغرفة وقال له: «لقد أرسلني هيثكليف لأُحضرَ له ابنَه. ويجبُ ألاّ أعودَ بدونه».

بدتْ علاماتُ الحُزنِ الشديدِ على قسمات سيّدي، وقال للخادمِ بمرارة: «أخبرِ السيّدَ هيثكليف أن ابنَه سيكونُ في منزلِه غداً، فهو الآن نائمٌ ومُتْعَبٌ».

وبصعوبةٍ كبيرةٍ تخلّصنا من جوزيف لكنّه هددَنا بأنَّ سيّدَه قد يحضرُ في اليومِ التالي الى «ثراشكروس جرانج» إن لم نرسل له ابنَه.

(٢٠)

أراد السيّدُ لينتون أن يتجنّبَ تهديداتِ هيثكليف، فسألني أن أوصلَ الصبيَّ الى منزلِ والده في الصباحِ وطلبَ منّي ألا أذكرَ لـ«كاتي» مكانَ وجودِه وأنْ اكتفيَ بالقولِ إنَّ والدَه ارسلَ في طلبه فاضطُرِرْنا إلى ارسالِه إليه.

أيقظتُ لينتون واخبرتُه أنّنا سنرسلُه إلى أبيه فصاح

متعجباً : « لكن أمي لم تخبرني قط بأنَّ لي أباً .. لِمَ لَمْ يَسْكُنا تحتَ سقف واحد كسائرِ الناس !؟ لقد كانتْ أمّي تحدّثني عن خالي فأحببْتُه ، لكنَّها لمْ تحدّثني عن أبي مُطلقاً . »

فحاولتُ أن أُلطِّفَ الأمرَ عليه بقولي : « لقد كانتْ صحة أمِّك تُحتِّمُ عليها أن تسكنَ في الجنوبِ ، بينما كانتْ أعمالُ والدِك التجاريةُ في الشمال .. ثم إن كلَّ الاطفالِ يُحبّون آباءهم .. هيّا ننطلقْ ، فالنُّزهةُ في هذا الصباحِ الجميلِ ألذُّ من النوم » .

لكنّه سألني إن كانتِ الفتاةُ التي رآها أمسِ ستذهبُ معَهُ وإن كان خالُه سيرافقهُ في رحلته . ولم يقبل لينتون أن يرحلَ إلا بعدَ أنْ وعدناهُ وُعوداً كاذبةً بأنَّ زيارتَه لوالده ستكونُ قصيرةً ، وبأن خالَه وابنةَ خاله سيُكثران من التردد عليه في « مرتفعاتِ وذرنج » .

وفي طريقِنا الى منزلِ والده أخذَ « لينتون » يسألُني عنِ المنزلِ الذي يذهبُ إليهِ وعن شكلِ والده . فلمّا وَصَلْنا كان « هيثكليف » و « جوزيف » و « هيرتون » في استقبالِنا . وقال لي هيثكليف : « لقد أحضرتِه لي يا نيللي .. دعيني أراه .. يا للجمال ! إنّه لساحرٌ حقاً . »

وطلبْتُ من « لينتون » أن ينزلَ عن الحِصانِ ، لكنَّه لم يكنْ متأكّداً من أنَّ هذا الغريبَ الساحرَ كانَ والدَه حقاً ، فما كانَ منهُ إلاّ أنْ وضعَ رأسَه على كتفي وانفجرَ بالبكاء .

فقالَ له هيثكليف : « هيّا .. فإننا لن نؤذيكَ يا لينتون —

أليسْ هذا اسمُك ؟- إنَّك تشبهُ أُمَّك كثيراً ، فأين شَبَهُكَ بي ؟ » ثم أمسك هيثكليف بذراعِ الصبيِّ وأخذَ يتحسّسُ أُصابعَهُ ، فتوقّفَ عنِ البكاء .

ثمّ سألَه هيثكليف : « هل تعرفني ؟ »

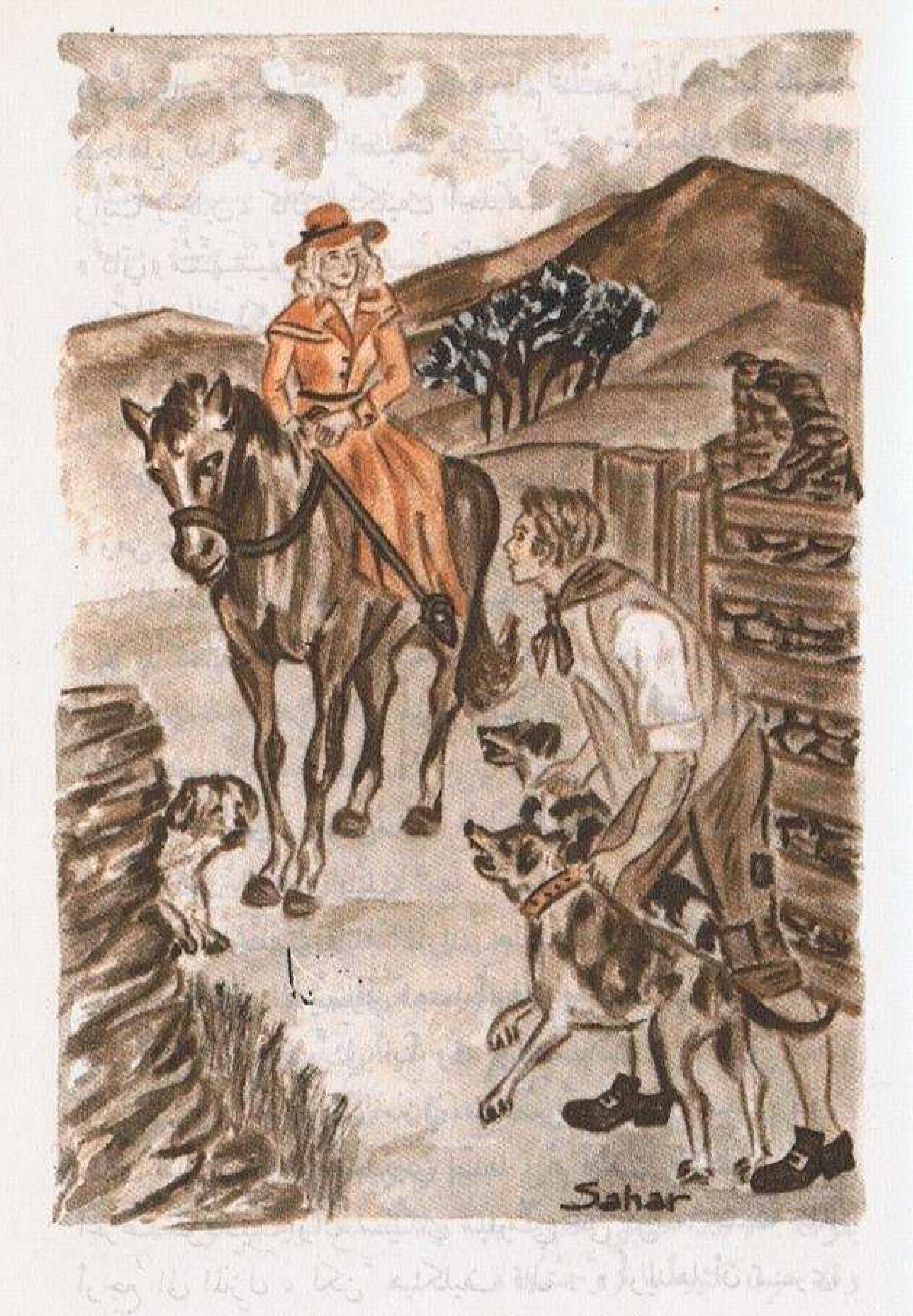
فأجابَ الصبيُّ : « لا » .

فقال له والده : « إنك ابني وقد أساءتْ أُمُّكَ التصرُّفَ لأنها لم تُخْبِرْكَ بحقيقة وجودي . »

وطلبَ مني هيثكليفَ أن أجلسَ إذا كنتُ مُتعبَةً ، أو أن أنصرفَ ، فقلتُ ، وأنا أتهيّأُ للذّهاب : « حسنٌ يا سيّد هيثكليف .. أرجو أن تكون حنوناً على الصبيِّ ، وإلا فإنّه لن يعيش طويلاً » . فقال : « لا تخافي ، سأكون حنوناً جداً عليه » .

ثم نادى جوزيف ليهتمَّ بإفطار الصبيِّ وأمرَ هيرتون بالانصراف إلى عمله ، وتابع قائلاً بعد انصرافهما : « إنّني أحتقرُ هذا الصَّغيرُ لذاته ، وللذّكرياتِ التي يبعثها بي ، لكنه ابني وأريدُ أن أراه سيّداً على املاكهم هم ، وأن يُوَظِّف أبناءهم للعمل في أرضٍ كانت لآبائهمْ من قبل . لقد هيّأْتُ له غُرفةً وثيرةً في الطّابقِ العلويِّ ، وكلّفتُ مُدَرِّساً خاصاً بالاهتمامِ بتربيته ، كما أمرتُ هيرتون بأن يكونَ مُطيعاً له . إني سأجعلُه سيِّداً نبيلاً ، ولكنَّ ما يحزُ في قلبي هو أنه لا يستحقُ كُلَّ هذا العناء .

ولم أجدْ سبباً لبقائي مدّةً أطولَ ، فهممتُ بالانصراف ، وسمعتُ لينتون يناديني بقوله : « لا تتركيني .. لن أبقى هنا .. لن أبقى هنـا .. » .



اللقاء الأول بين كاترين وهاريتون

(٢١)

استيقظتْ «كاتي» ذلك اليومَ متلهِّفةً لرؤيةِ ابنِ عمَّتِها الصغيرِ ، ولمّا علمتْ برحيله بكتْ بُكاءً مريراً .

وكنتُ إذا صادفتُ المسؤولةَ عن إدارةِ شؤون «مرتفعات وذرنج» اسألُها عن السيِّدِ الصغيرِ الذي كان يعيش حياةَ عُزلة تشبهُ عزلة «كاتي» . وعلمتُ منها أن صحتَه ظلَّت سيئةً وأن كراهيةَ هيثكليف له كانتْ تزدادُ يوماً بعدَ يومٍ ، وإنْ حاولَ هيثكليف أن يخفيَ هذه الكراهية .

ومرّتِ الأيّامُ على صَفْوِها السّابقِ في «ثراشكروس جرانج» إلى أن بلغتْ كاتي سِنَّ السّادسةَ عشرة . وكانت ذكرى ميلادِها توافقُ ذكرى وفاةِ والدتِها ، وكانَ من عادةِ السيِّدِ لينتون في تلك الذكرى أن يزورَ ضريحَ زوجته ويتركَ كاتي تلهو وحيدةً .

أبكرتْ «كاتي» في ارتداء ملابسِها وأخبرتْني أن أباها سمحَ لها بالذّهابِ حتى حُدود المستنقعات إذا رافقتُها انا في هذه النّزهة ، وطلبَتْ منّي أن أُسرِعَ لأنّها كانت متشوّقةً لرؤيةِ الطيورِ لتعرفَ إنْ كانتْ قدْ بنتْ أعشاشَها أم لا .

انطلقتْ كاتي في المراعي بحبورٍ شديد ، تتمتعُ بروعة الطبيعةِ وبالدِّفء المنبعثِ من أشعةِ الشَّمس . وكنتُ اسألُها كلَّ قليلٍ عن طيورِها فتجيبُني بأنّنا سنصلُ إليها بعدَ قليل . بدأ القلقُ يدبُّ فيَّ وأخذتُ أناديها لنرجعَ إلى المنزلِ ،

لكنّها كانت تسبقني بمسافة بعيدة فلم تسمعني أو أنّها كانت تتجاهلُ نداءاتي . ولمّا اصبحنا قريبيْن من « مرتفعات وذرنج » رأيتُ رجلين، كان هيثكليف أحدَهما ، يُلقيان القبضَ على « كاتي » متّهميْن إيّاها بسرقةِ أعشاشِ الطيورِ من ممتلكات هيثكليف . لكنَّ السيّدةَ الصغيرةَ أنكرتْ ذلكَ وقالت :

« لقد أخبرني أبي أن هناكَ طيوراً كثيرةً في هذهِ البقعةِ ، وقد أردتُ أن أرى اعشاشها وبيضَها » .

فقال هيثكليف وهو يرسمُ ابتسامةً خبيثةً على شفتيه : « ومن يكونُ والدُك هذا الذي تتحدّثينَ عنه ؟ »

فأجابتْه كاتي قائلةً : « إنه السيّد لينتون، وإنّكَ لا تعرفُني وإلاّ لما كنتَ خاطبْتني بهذهِ اللهجة . »

وبلهجة ساخرة قالَ لها هيثكليف : « إذاً أنتِ تظنّينَ أن أباكِ شخصٌ محترمٌ جداً .. »

فسألتْه كاتي : « ومنْ أنتَ ؟ » وأشارتْ الى هيرتون قائلةً : « وهلْ ذلكَ الرّجلُ ابنُكَ ؟ »

وهنا تدخّلْتُ قائلةً لها إنَّ علينا الرجوعَ الى البيْتِ ، لكنَّ هيثكليف لم يُعرْني اهتماماً وقالَ لها : « إن هذا الرّجلَ ليس ابني .. ولكنَّ لي ابناً وقد رأيتِهِ أنتِ من قبلُ .. ألا تتفضّلينَ بالدّخولِ إلى منزلي مع مُربّيتِك ؟ » فقبلتْ كاتي بذلكَ على الرّغمِ من تحذيري إيّاها ، ثم أبلغتُ هيثكليف أنني أعرفُ سوءَ نيّتهِ وأنَّ سيّدي سيلومُني على كلّ ما حدثَ حالما أرجعُ الى المنزِل ، لكنَّ هيثكليف قال : « أُريدها أن ترى

لينتون .. أريدُ أن يتحابّا ويتزوّجا .. إن هذا كرمٌ منّي لأن هذه الفتاة لن ترث شيئاً بعد موت أبيها . »

فقلت : « ولكن حياةَ لينتون معرضةٌ للخطر بسبب صحّته وستكونُ هي وريثتَه . » . فأجاب : « ليسَ في الوصيّةِ ما يُشيرُ إلى ذلك ، بل ستنتقل الممتلكاتُ التي يرثها عن خالِه اليَّ . ولكنّني على أيّةِ حالٍ أرغبُ في زواجهما » .

إسترحنا في غرفةِ الجلوسِ ، وكان هيثكليف يخاطبُ « كاتي » بلطفٍ ظاهر . أمّا لينتون فكانَ واقفاً قربَ المُستوقَدِ وقد تَعَجّبْتُ لنموِّ السّريعِ ولتحسّنِ صحّتِه .

التفتَ هيثكليف إلى كاتي وسألَها مُشيراً إلى لينتون : « ومن هذا ؟ » فقالت مستفسرةً « أهو ابنُكَ ؟ » فأجابها بقوله : « إن ذاكرتكِ ضعيفة . ألا تذكرينَ ابنَ عمتك ؟ » وهنا صاحتْ كاتي بسرورٍ بالغٍ : « إذاً هذا لينتون الصغير ... لقد أصبحَ يفوقني طولاً » . ثم تقدّمتْ إليه وقبّلته . وبعدَ ذلك قبّلتْ هيثكليف قائلةً : « إذاً أنتَ زوجُ عمّتي . لِمَ لا تزورُنا في منزلِنا ؟ لقد كانت نيللي شقيّةً بعدمِ سماحِها لي بالدخول إلى هذا المنزل » .

وحاولَ هيثكليف إخفاءَ انزعاجه وقالَ لها : « يحسُنُ بي أن أُخبركِ أنّني كنتُ قد تشاجرتُ مع أبيك سابقاً . وإذا أنت ذكرْتِ له أنّكِ جئتِ إلى هذا المكانِ فإنّه سيمنعُكِ من تكرارِ الزيارة » ، ولمّا سألتْهُ عن سببِ شجارِه مع والدِها أجابها بقوله : « لقد حسبني فقيراً جداً ولا أصلحُ للزواجِ من أختِه ، وقد حزِنَ كثيراً لما تزوّجتُها » .

انفعلت كاتي وقالت: « هذا ليس صحيحاً. سأخبر والدي يوماً ما بذلك. أمّا انا و « لينتون » فليس لنا من هذا الشجار نصيب، وأنا لن أستطيع أن أجيء إلى هنا بعد اليوم، لكن بامكانه هو أن يزورنا. »

فتمتم ابن عمّتها يقول: « ولكنّ البيت بعيد جداً ولن أقدر على أنْ أمشي أربعة أميال. »

ونظر هيثكليف إلى ابنه نظرة قاسية وقال له: « ألا تريد أن تتجوّل مع كاتي في الحديقة؟ ».

فسألها لينتون: « ألا تفضّلين الجلوس هنا؟ »

قالت وهي تنظر الى الباب: « لستُ أدري ».

وبقي لينتون جالساً، فقام والدُه عند ذلك ونادى هيرتون ولما رأته كاتي قالت: « هذا ليس ابن خالي، أليس كذلك؟ » فقال هيثكليف: « بلى.. إنه ابنُ خالك. ألا تحبّينه؟ » فهمست كاتي بشيء في أُذُن هيثكليف فأخذ يضحكُ في حين أصبح لونُ هيرتون قاتماً. وخاطبه هيثكليف بقوله: « يبدو أنها تفضّلك علينا فقد قالت عنك شيئاً حسناً. قُمْ ورافقها في المزرعة وتصرّف تصرّفاً حسناً معها! »

ولمّا انصرفا قال لي هيثكليف: « إنني أجدُ متعةً في هيرتون. إنّني أفهمُ شعورَه لأنني عانيتُ مثلما يُعاني الآن. لكنّه لن يتخلّص أبداً من بذاءته وجهله لأنّني علّمتُه أن يفتخر بهما. إن هيرتون يحبّني كثيراً، ولو أن أباه قام من قبره واتّهمني باساءة معاملة ابنه، لتصدّى له هيرتون نفسُه مدافعاً عنّي

قائلاً إني صديقُه الوحيدُ في الدنيا ».

وبدا لينتون منزعجاً لأنّه خسر رفقة كاتي، فقرّر اللّحاق بها؛ وكانتْ تسألُ هيرتون عمّا كُتب على الباب فأجابها: « بعضُ العبارات.. لا أُحسِنُ قراءتَها ». وهنا تدخّل لينتون وأخذ يسخرُ من جهل هيرتون وعدم معرفته القراءة، فاحمرّ وجهُ هيرتون خجلاً من نفسه، وانزعاجاً من ضحكات « لينتون » و « كاتي ».

* * *

وفي اليوم التالي عرف سيّدي بما حصل، فلام كاتي. ولمّا أصرّتْ على معرفة الأسباب التي تجعلُه يمنعُها من زيارة « مرتفعات وذرنج » أخبرها باختصار عن سوء معاملة هيثكليف لـ« ايزابيلا » وعن كيفيّة حصول هيثكليف على مُلكيّة « مرتفعات وذرنج »، فاقتنعت السيّدةُ الصغيرةُ بحجّة والدها.

وفي المساء سمعتُ « كاتي » تبكي، فحاولتُ أن ألطّف حزنها فقالت: « إنني لا ابكي من أجل نفسي ولكنْ من أجل لينتون، فهو لن يراني ثانيةً. ألا استطيع أن أكتُبَ إليه لأخبره بما حدث، وأُرسل له بهذه الكتب التي وعدتُ أن أُعيره إيّاها. ولمّا أجبتها قائلاً إن رسالتها ستعقبُها رسائلُ منه وأنّ هذا يجب ألاّ يحدُث رمتْني بنظرة عنيفة فلم أُقبّلها كعادتي كلّ ليلة، ولكني ندمتُ على ذلك ورجعتُ لأُقبّلها فوجدتُها جالسةً إلى الطاولة وفي يدها قلمٌ تخطُّ به رسالتها، فحاولتُ إخفاء الأمر لكني قلتُ لها: « لن يُوصِل أحدٌ رسالتك ».. ثم أطفأت

الشمعة فضربتني على يدي .

لاحظت أن كاتي كانت تتردّد على غرفة المكتبة كثيراً ، وأنّها كانت تقف إلى جانب دُرْج صغير هناك وتفحصه طويلاً ثمّ تحرص على إقفاله والاحتفاظ بمفتاحه . وقد دفعني الفضول إلى معرفة ما في الدُّرْج فوجدت بين مفاتيحي مفتاحاً يناسبه ففتحته واكتشفت أن فيه مجموعة من رسائل لينتون رداً على رسائلها إليه .

وفي اليوم التّالي راقبتُ « كاتي » عن كثب فاكتشفتُ أنّها كانتْ تُرسل رسائلها الموجّهة إلى لينتون بواسطة بائع الحليب الذي يحمل لها الردّ من لينتون . ولحقتُ ببائع الحليب وأخذتُ الرسالة منه بعد أن قاومني ، فتبيّن لي أنّ رسالتها أبسطُ من رسائل ابن عمّتها واكثرُ اخلاصاً .

اكتشفتْ كاتي أن الرسائل غيرُ موجودة في الدُّرْج ، ولكنّها لم تُرِدْ أن تثير شكوك والدها ، فنادتْني على انفراد وقالتْ : « لقد أخذتِ الرسائل يا نيللي، فأرجعيها إليّ ! صحيحٌ أنّني أسأْتُ التصرّف ولكنّني لن أُكرّر ذلك مطلقاً » . ولكنّني أجبتُها بقولي : « إنّ عليّ أنْ أُطلِع والدها على هذه الرسائل » . فرجتْني ألاّ أفعل ذلك وقالتْ : « إفعلي بهذه الرسائل ما شئت ، أحرقيها إذا أردت ذلك .. ولكن لا تُطلعي والدي عليها » .

تقطّع قلبُ كاتي حزناً عندما كنتُ احرقُ رسائلها وتوسّلتْ إليّ أن أُبقي على رسالةٍ او اثنتين للذكرى ، فرفضتُ

ذلك . وفي اليوم التالي طلبتُ من بائع الحليب أن يُوصل رسالةً منّي إلى لينتون كتبتُ عليها « المرجوّ من السيّد لينتون هيثكليف أن يكفّ عن إرسال الرسائل إلى الآنسة كاتي لينتون ، إذ أنّها لن تستلمها » .

ومنذ ذلك الحين أصبح بائعُ الحليب يأتي إلينا وجيوبُه فارغةٌ من الرسـائل ..

(٢٢)

انقضى فصلُ الصيف وتأخّر الحصادُ في تلك السّنة . وقد اضطُرّ سيّدي الى ملازمة منزله طوال الشتاء التالي لمرض ألمّ برئتيه ، أما كاتي المسكينةُ فقد سيطر عليها الخوفُ بسبب علاقتها الصغيرة بـ« لينتون » .

وفي يوم من أيّام تشرين الثاني التي تُنذر بالشّتاء ، طلبتُ من كاتي أن تُلغي نزهتها فرفضتْ فاضطررتُ إلى الذهاب معها حاملةً مظلّتي . لقد كانتْ تقومُ بمثل هذه النزهة لتروّح عن نفسها وبخاصّةٍ حين يشتدُّ المرضُ على والدها كما في ذلك اليـوم .

وبلغنا باباً يؤدّي إلى الطريق فتسلّقتْ كاتي السور وجلستْ محاولةً اقتطاف بعض أثمار العُلّيق ، فسقطتْ قبّعتُها خارج السور فنزلتْ لتأتي بها ولكنّها فشلتْ في تسلّق السور من الخارج ، فطلبت منّي أن أُحضر المفتاح . وكنت احملُ عدداً

من المفاتيح لكنَّ أيّاً منها لم يُناسبْ قفلَ البابِ . وهنا سمعتُ كاتي تهمسُ من وراءِ الباب : « ليتَكِ تستطيعينَ فتحَ البابِ يا نيللي » ، ثمّ تناهى إلى سمعي صوتٌ عميقٌ يقول : « تسرني رؤيتُكِ يا آنسة لينتون ... إنني أطلبُ منكِ إيضاحاً » .

فأجابته كاتي : « لن اكلّمك يا سيّد هيثكليف .. إن أبي ونيللي يقولانِ إنّكَ رجلٌ شرّيرٌ تكرهُني وتكرهُ والدي » .

قال : « لا علاقةَ لهذا الأمرِ بما أُريدُ ان احدّثك بشأنه . لا أظنُّني أكرهُ ابني ، وبشأنه أطلبُ اصغاءكِ .. أجل .. إن من حقك أن تحمرّي خجلاً . لقد كان من عادتكِ مراسلةُ ابني ، ويبدو أنّكِ سئمتِ هذه العادة . ان رسائلك معي ، وسوف أعرضُها على والدِك .. إن ابني يتحرّقُ إليكِ شوقاً ، واذا لم تساعديْه فإنه سيموتُ قريباً .. » .

وهنا صرختُ بصوت عالٍ : « لا تصدّقي هذا الهراءَ يا كاترين ! » فقال : « لم أكنْ أعلَمُ أن هناكَ من يسترقُ السماع من وراءِ الباب .. أيتّها السيدةُ ، سأكونُ غائباً عن بيتي طوالَ هذا الأسبوعِ ، وبامكانكِ أن تذهبي وتتأكّدي بنفسكِ مما اقــول » .

وتحطّم قُفل الباب ، وأدخلَتْ كاتي وهي لا تزالُ تنظرُ بقلقٍ إلى هيثكليف ...

حاولتُ إقناعَ السيّدة الصغيرةَ في المساءِ بأنَّ ما سمعتْه من هيثكليف كذبٌ وهراءٌ فكانتْ تقول : « قد تكونين مُحِقّةً ، ولكنَّ بالي لن يهدأ قبل أن أتأكّد بنفسي » .

وفي اليومِ التالي انطلقتُ معها الى « مرتفعاتِ وذرنج » يرافقني أملٌ ضعيفٌ في أن تُثْبِتَ لها طريقةُ استقبالِ لينتون أنَّ كلامَ أبيه كان باطلاً .

(٢٣)

وصلنا الى « مرتفعات وذرنج » ودخلنا من طريقِ المطبخِ لنتأكّدَ من غيابِ السيّد هيثكليف . وعند دخولِنا سمِعْنا صوتَ لينتون يُنادي « جوزيف » ليُحضِرَ كميّةً من الفحمِ لِلمُستوقَد .

ولما تنبّه لينتون إلى قدومنا قال: «أهذا أنتِ يا آنسة لينتون ؟ هل لكِ أن تُغلقي البابَ فإنَّ البردَ قارس » . ثمّ انتابه سُعالٌ شديدٌ ، وبدتْ علاماتُ الحُمّى واضحةً عليه .

قالتْ كاتي : « هل أنتَ سعيدٌ برؤيتي ؟ »

فأجابها : « لِمَ لمْ تحضُري قبلَ اليوم ؟. لقد أتعبتْني كتابةُ الرسائلِ الطويلةِ لكِ ، وها أنا ذا الآنَ لا أقوى على مجرّد الكــلام » .

ثمّ سألَ عن زيللا لأنّه كان يُريد ان يشربَ ، فأحضرتْ له كاتي كوباً من الماء ، وطلبَ إليها أن تُضيفَ إلى الماء قدر ملعقة من الخمرِ ففعلتْ . وبدأ التحسُّنُ يظهرُ على وجهه وابتسم « كاتي » ابتسامةً ضعيفةً فأعادتْ طَرْحَ سؤالِها عليه :

— « هل انتَ سعيدٌ برؤيتي ؟ »

— « أجل ، ولكنني تضايقتُ من عدمِ حضورِك قبلَ اليومِ. لقد كان والدي يقسمُ أنّني المسؤولُ عن ذلكَ وأنّه لو كانَ مكاني لأصبحَ السيّدَ الأوّلَ ! « ثراشكروس جرانج » بدلاً من ابيك . »

— « لا اجرؤ على زيارتِك ووالدُك موجودٌ هنا ، ولو كان والدي يسمحُ لي لقضيتُ نصفَ أوقاتي بجانبِك .. إني أتمنّى لو كنتَ أخي . »

— « إن ابي يقول إنك لو تزوّجْتِني لأحبَبْتِني اكثر . »

— « إن الناسَ قد يكْرهون زوجاتِهم احياناً .. ولكنهم لا يكرهونَ اشقّاءَهم وشقيقاتِهم . »

أنكر لينتون ان يكونَ الرجالُ يكْرَهُون زوجاتِهم مُطْلقاً ، غيرَ أنّ كاتي أصرّتْ على رأيِها ، وجاءتْ على ذلكَ بمثَلٍ وهو كُرْهُ أبيه لعمّتها . ولما انكر لينتون ذلك قالت :

« لقد اخبرَني أبي بالأمر .. وأبي لا يأتي بالأكاذيب . »

— « إنّ أبي يزدري اباكِ . »

— « وأبوكَ رجلٌ شرير . »

— « سأخبرُكَ بشيء ، وهو أنّ أمّكِ كانت تكْرَهُ أباكِ .. بينما كانت تحبُّ والدي . »

— « انك تكذب .. انا اكرهك . »

وسُرَّ لينتون لغضبِها فأخذَ يقولُ مكرراً : « كانت تحبُّه .. كانت تحبُّه » ، ففقدتْ كاتي سيطرتَها على اعصابِها ودفعتْ بكرسيّ « لينتون » دفعةً قويّةً جعلته يقعُ أرضاً . وعلى الأثرِ

أُصيبَ بنوبةٍ من السُّعال الشديد ، بينما استغرقتْ هي في البكاء.

وبعدَ قليلٍ سألتُ لينتون إن كان يشعرُ بالتحسُّنِ فقال : « ليتها تشعرُ بما أشعرُ به ؛ إنّها قاسيةٌ لا تعرفُ الرأفة » ، وظلَّ يتأوّهُ ويئنُّ مدةَ رُبعِ ساعة .

واخيراً قالتْ كاتي : « إنني آسفةٌ لأنني آذيتُك ؛ لكني لم ادفعِ الكرسيَّ بعنفٍ ، ولا أظنُّ أني كنتُ أُصاب بالألمِ لو كنتُ انا جالسةً عليها ، ولم أحسبْ أنّك ستتأذى . »

أجابها لينتون : « لا استطيعُ ان أتكلّم معَك ، لقدْ آذيتِني كثيراً حتى إني سأقضي هذه الليلةَ وانا مصابٌ بالسُّعال . »

فسألتْه كاتي : « أيجب أن أرحلَ إذن ؟ »

فقال : « دعيني وحـدي ! »

انتظرتْ سيّدتي الصغيرةُ بعضَ الوقتِ ، لكنه لم يكلّمْها ولم ينظرْ إليها . واخيراً توجهتْ الى البابِ فتبعتُها ، لكنَّ صراخَ لينتون أجبَرنا على الرجوعِ ، فقد انزلقَ من مقعدِه وهوى الى الأرضِ ، فساعدتُه على الجلوسِ ، وأخذتْ كاتي تلاطفُه وقدّمتْ له كوباً من الماءِ ، وأنشدتْ له بعضَ الأغاني .

ولما اعلنتِ الساعةُ الثانيةَ عشرةَ همَمْنا بالرحيلِ فسألَها لينتون : « هل ستأتينَ هنا غداً يا كاتي ؟ » فهمستْ شيئاً ما بأذنِه وخرجنا من المنـزل .

وحالَ خروجِنا قلتُ لها . « لا احسبُكِ ستأتينَ هنـا في الغد » ، فتبسّمت . ثم قلت لها : « سأكون على حذرٍ وسأصلحُ قفلَ الباب » ، فقالتْ : « يمكنُني تسلّقُ الجدارِ ، فإن « الجرانج »

ليس سجناً علاوة على أنني في حدود السابعة عشرة ، ثم إن لينتون سيتماثل بسرعة للشفاء اذا اعتنيتُ به »، فهددتُها بابلاغ أبيها إن هي ذهبتْ إلى « مرتفعات وذرنج ».

وصلنا إلى « الجرانج » فلم يستفسر سيدي عن سبب غيابنا ظناً منه بأننا كنا في نزهة قريبة.

وفي الاسابيع الثلاثة التالية ظللتُ طريحةَ الفراش لرطوبة ألمّتْ بقدمي ؛ وكانتْ كاتي في هذه الفترة تقومُ برعايتي وتؤنس وحشتي بملائكيتها.

(٢٤)

انقضت الاسابيعُ الثلاثةُ ، وصارَ في مقدوري مغادرةُ السرير . وفي الليلة الأولى طلبتُ من كاتي أن تقرأ لي فقبلتْ ذلك على مضض ، وبعد حواليْ ساعة صارتْ تسألني إن كنتُ متعبةً وإن كنتُ أفضّلُ الرجوعَ الى سريري ، لكنني كنتُ أجيبها بقولي : « لا ، يا عزيزتي ، لست متعبة » . بعد ذلك أخذتْ تتململُ وتتثاءبُ وتنظرُ الى ساعتها ، ثم صعدتْ الى غرفتها .

وزادَ تململُها وتبرمُها في الليلة الثانية ؛ وفي الليلة الثالثة ادعتْ أنها مصابةٌ بالصداع وتركتني ، ولم اكنْ مطمئنةً الى تصرفاتها الغريبة هذه ، وصعدتُ الى غرفتها لأسألها إن كانتْ تشعرُ بالتحسن ، فلم أجدْها . بحثتُ عنها في المنزل كلّه فلم

أجدْ لها أثراً . عند ذلك رجعتُ الى غرفتها وجلست بجوار النافذة .

وبعدَ قليلٍ رأيتُ أحدَ عمال الإسطبل يجرُّ وراءه حصانَ كاتي ، وهي تسيرُ بجانبه . ثم تسلّلتْ الى المنزل بواسطة احدى النوافذ ، وصعدتْ إلى غرفتها بهدوءٍ ، فأظهرتُ لها نفسي قائلةً : « اين ذهبتِ يا آنستي العزيزةَ على ظهرِ حصانكِ في مثلِ هذه الساعةِ المتأخرة ؟ »

تعجبتْ كاتي من وجودي في غرفتها وتسمّرتْ في مكانها من شدةِ الصدمة ثم قالتْ : « لقد ذهبت إلى نهاية الحديقة . »

قلت : « ألم تذهبي أبعدَ من ذلك ؟ »

فقالت بصوتٍ منخفض : « لا .. »

وبلوعة شديدة قلتُ لها : « إنكِ تعلمينَ أنكِ اسأتِ التصرف .. أنا لا استطيعُ ان أسمعكِ تكذبين . »

وهنا اندفعتْ إليّ وغمرتني بذراعيها وقالت : « لا استطيعُ أن اراك غاضبةً .. سأخبركِ بكلِ شيء ، ولكن لا تغضبي :

لقد كنتُ في مرتفعات وذرنج لأنني أردتُ أن أفيَ بوعدي لـ « لينتون » ولم أنقطع مدةَ مرضكِ يوماً عن الذهابِ إليه بعد أن حصلتُ من عاملِ الاسطبل على المفتاح .

وبدأتْ روحُ لينتون المعنويةُ بالارتفاع عند زيارتي الثانية ، وكنتُ أنشدُ له بعضَ الاغنياتِ ، وألعبُ وإياه بالكرة فيتعب ويُصابُ بالسعال .

وفي الليلة التالية استقبلني هيرتون وأبلغني انه صار يستطيع أن يقرأ النقش الموجود على الباب ، فشجعته ولكني طلبت اليه أن ينصرف لأنني جئت لأرى لينتون لا لأراه هو ! فاحمرت وجنتاه خجلاً وانصرف منزعجاً ... وأعتقد انه يظن نفسه متعلماً مثل لينتون تماماً ... » .

وهنا قاطعتها قائلة : « يجب أن تعلمي يا كاتي أن هيرتون هو ابن خالك . لقد جعلته بادىء الامر يخجل من جهله ، ولما أبدى طموحه برغبته في العلم جرحت شعوره . هل تعتقدين أنك لو نشأت نشأته لكنت أفضل منه الآن ؟ »

فأجابتني بقولها : « إنتظري حتى أكمل لك روايتي :

دخلت ورأيت لينتون مريضاً ، ثم طلب إلي ان اقرأ له ولما هممت بذلك اقتحم هيرتون الغرفة وأمسك بذراع لينتون وصحبه من مقعده بقوة قائلاً له : « اصعد إلى غرفتك . لقد جاءت لتراك فخذها الى غرفتك لأنني لن أغادر هذا المكان » ثم دفع بـ « لينتون » خارجاً فتبعته وأوصد باب الدار

اخذ لينتون يتوعد هيرتون ويهدده إن لم يفتح لنا الباب ، واصيب بنوبة أخرى من السعال . ونزف الدم من فمه وسقط أرضاً . وعند ذلك ناديت « زيللا » وفتح « هيرتون » الباب وحمل « لينتون » إلى غرفته وطلب الجميع مني أن انصرف .

وبينما أنا أغادر « مرتفعات وذرنج » لحق بي هيرتون مظهراً أسفه فضربته بسوطي ومشيت .

لم اذهب للزيارة في اليوم التالي ، ولكنني كنت خائفة على

« لينتون » . فقررت الذهاب في اليوم الثالث وقد كانت فرحتي غامرة عندما وجدته يقرأ كتاباً في غرفة في الطابق العلوي . وما إن رآني حتى أخذ يلومني على ما حصل ، بدلاً من أن يلوم هيرتون ، فانصرفت وقد عقدت النية على ألا أزوره مطلقاً .

لكنني عدت لزيارته بعد يومين ، إذ إنني لم أتحمل عدم سماعي أخباره . وقلت له إني أريد وداعه ما دام يظن أنني كنت أجيء لأوذيه وأسيء إليه فقال : « إنك أسعد مني كثيراً يا كاتي . إنني سيء الخلق في بعض الاحيان ولكنني أود أن اكون رقيقاً وحنوناً طيباً مثلك . إن حنوك علي جعلني أحبك حباً جماً ؛ وعلى الرغم من أنني أظهر لك سوء خلقي ، فإنني سأندم على ذلك ما حييت » .

شعرت انه صادق فيما يقول ، وأن علي أن أصفح عنه ، فقد تعلمت أن أتحمل سوء طبعه وأنانيته . أما هيثكليف فكان يتجنبني عن قصد ، وقلما كنت أراه .

لقد سمعت كل شيء يا نيللي ، فهل ستخبرين ابي به ؟ »

فكرت في روايتها ملياً وقررت أن أخبر والدها . وقد حزن كثيراً عند سماعه ما حصل ، ومنعها من زيارة لينتون ولكنه سمح له هو بزيارتها إن شاء ذلك .

(٢٥)

أطاعت كاتي أوامر والدها ، فقد كان حبها له يحتل مركز

الصّدارة في قلبها. لقد كلّمها بحنانِ من يشعرُ أنّه سيترك ثروتَه للأخطارِ والأعداء؛ وبعدَ أيامٍ قالَ لي: «إنّني أتمنّى أن يكتبَ لنا ابنُ أختي أو أن يجيء لزيارتنا.. ما هو رأيُكِ به يا نيللي؟»

فأجبتُه: إنه رقيقُ الصحّةِ يا سيّدي، ولا يبدو أنّه سيبلغُ حدَّ الرُّجولة.. وإذ كانتِ الآنسةُ كاتي ستتزوّجُه، فإنّه سيكونُ تحت سيطرتها.

تنهّد السيّد إدجار ثم قال، وهو يمشي إلى النافذةِ وينظر باتّجاهِ الكنيسة: «طالما صلّيْتُ لأن يجيء يومٌ تواريني فيه زوجتي ثرى الكنيسةِ، ولكنني أهابُ الموتَ الآنَ إذ كيفَ أستطيعُ أن اترك كاتي؟ أنا لا يهمّني كونُ «لينتون» ابنَ هيثكليف إذا استطاعَ أن يعزّيها عن فقدي، ولكنّني أخشى أن يكونَ دُمْيَةً مُسْتَضْعَفَةً في يد والده.

ظلَّ سيّدي في فصلِ الربيعِ ضعيفَ القُوى، غير أنّه عادَ إلى التنزّهِ في الحديقة مع كاتي. وكتب سيّدي إلى لينتون ثانيةً يخبره بتطلّعه إلى زيارته فأجابه لينتون في رسالته أنّه يأملُ أن يلتقي به وبـ«كاتي» في إحدى نزهاته، لأنّ والدَه يمنعُه من زيارة «ثراشكروس جرانج»، غَيْرَ أنَّ صحّةَ سيّدي كانتْ تمنعُه من مرافقة كاتي في النزهات.

وفي الصيف ظلّتْ قوى سيّدي تنحدرُ، وأخيراً سمحَ لي بمرافقة كاتي مرةً كلَّ أسبوعٍ في نزهة تقومُ بها مع لينتون. وعلى الرغمِ من أن سيّدي كان يدّخرُ قسماً من مدخولِه السنوي

لابنته لتنفقَهُ بعد موتِه، فإنه كان يرغبُ في أن تستعيدَ بيتَ أجدادِها أو تعودَ إليه بعد فترة قصيرة، وقد كان منفذُها الوحيدُ إلى ذلك زواجَها بـ«لينتون».

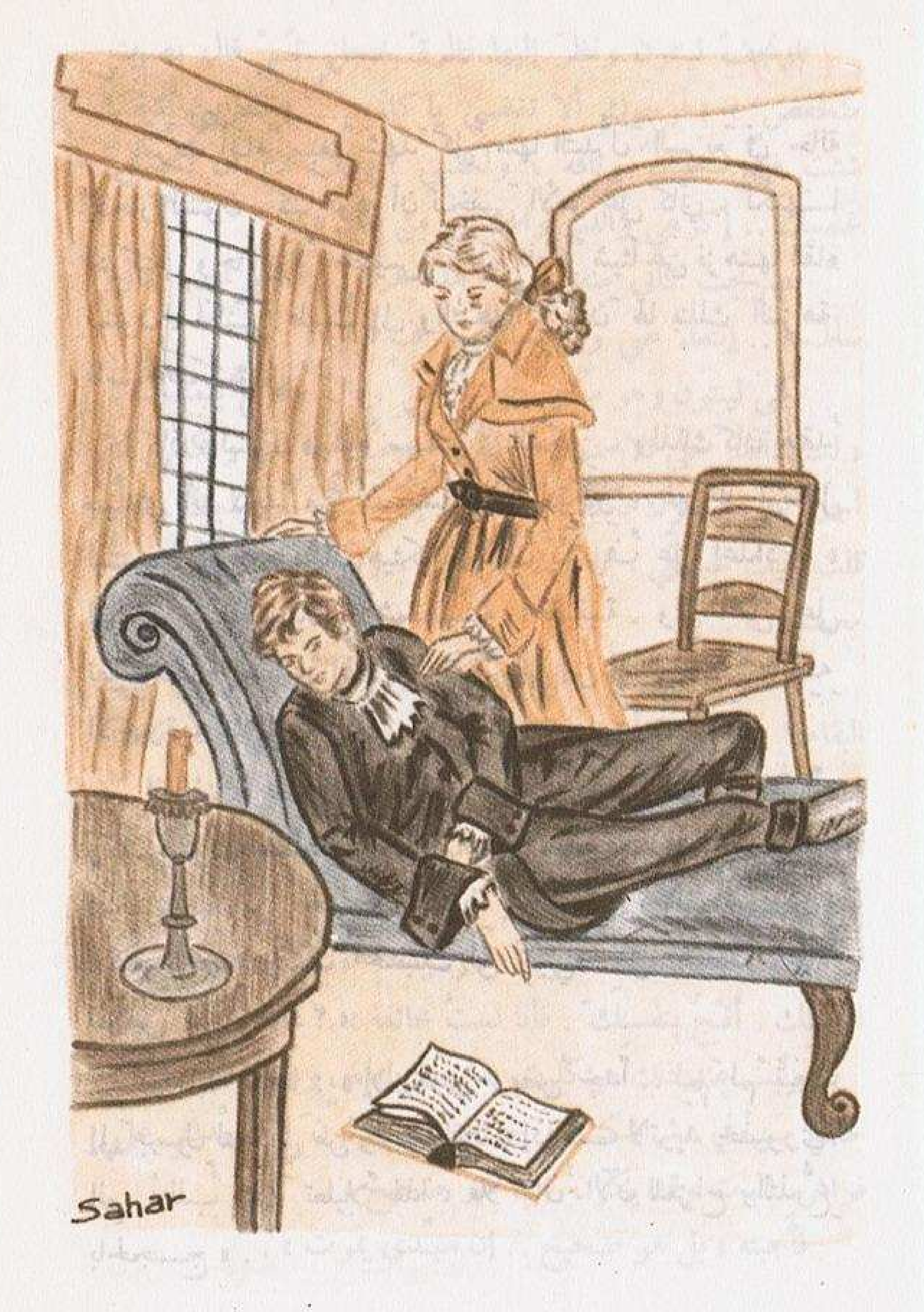
ولم يكن سيّدي يعلمُ أن لينتون كان يسيرُ إلى حافّةِ قبره بخطى سريعة. أما هيثكليف فقد كان يخشى أن تفشلَ خططُه الخبيثة بموتِ ابنِه.

(٢٦)

اصطحبتُ كاتي في رحلتِها الأولى للقاءِ لينتون، وكان من المتّفقِ عليه أن نلتقيَ عند مفترقِ الطُّرقِ، ولما وصلْنا الى هنالكَ وجدْنا غُلاماً ينتظرُنا لإبلاغِنا أن لينتون يكون شاكراً لنا لو تقدّمْنا قليلاً للقائه، فسِرنا حتى بلغْنا مكانَه، ولم يكنْ يبعدُ عن منزلِه اكثرَ من ربعِ ميل.

كان لينتون قد اضطجعَ على العشبِ ينتظرُنا، ولم ينهض إلا عندما أصبحنا على مسافةِ ياردات قليلةٍ منه. وكان يمشي بصعوبة. وأبدت كاتي دهشتها لشدّة ضعفِه، ثم جلستْ بجانبه تحدثُه ولكنّه لم يقوَ حتّى على محاورتِها.

وشعرتْ كاتي أن وجودَنا رُبَّما أزعجَه بدلاً من أن يُدخِلَ البهجةَ إلى قلبه، فاقترحتْ أن ننصرفَ، فأثارَ هذا الاقتراحُ لينتون على عكسِ ما توقّعنا. لقد كان ينظرُ نحو المرتفعاتِ راجياً كاتي أن تبقى معه نصفَ ساعةٍ أخرى على



هاريتون يرفض مخاطبة كاترين

الأقلّ ، ثم قال : « لا تظنّي أو تقولي يا كاتي إنّ مرضي شديد . فإنّ الطقسَ هو الذي يجعلُني خاملاً ، ولقد مشيتُ كثيراً قبلَ حضورِك ، هل لكِ أن تُبلغي خالي بأنّ صحتّي جيّدة ؟ »

فقالت كاترين : « سأُبلغه أنّك أنتَ تحسبُ صحتَك جيّـدة . »

وتابع يقولُ : « تعاليْ يومَ الخميسَ القادمِ إلى هنا ، وإذا رأيتِ والدي فلا تجعليه يعتقد أنّني كنت صامتاً مُغفّلاً معك ؛ ولا تُظهري له أنّكِ كئيبةٌ ، فإنّه سيغضب . »

فسألتُه أنا : « أمَا زال يُسيءُ معاملتَك ؟ »

فنظر إليَّ دونَ أن يجيبَ عن سؤالي . وبعد عشرِ دقائقَ ، كان لينتون خلالها خافضَ الرأسِ يئِنُّ باستمرارٍ ، قالتْ لي كاتي بصوت منخفض : « لماذا أراد ان يراني ؟ لعلّه يرى في ذلكَ واجباً يقومُ به مُجبَراً عليه ، لأنّه يخافُ من أن يُعنّفَه والدُه .. ولكنني لم آتِ لأُدخلَ البهجةَ الى قلبِ هيثكليف » .

أفاقَ لينتون من نومِه فجأةً وقال : « صه .. إنّ والدي قادمٌ » وأمسكَ بذراعِ كاتي فتخلصتْ من قبضتِه وانصرفتْ بعدَ أن أبلغتْه أنّها ستحضرُ يومَ الخميسِ المقبلِ إلى هذا المكـان .

ولما وصلْنا الى البيتِ استفسرَ سيّدي عما جرى في هذا اللقاء فلم نخبرْه الشيءَ الكثيرَ لأنّ كاتي كانتْ تخمّنُ أن ابن عمتها يبالغُ في إظهار أوجاعه ، ولأنني لم أكنْ أعرفُ ما يجبُ عليَّ أن أُخفيَه وما يجبُ عليَّ أن أُخبرَ عنه .

(٢٧)

مرّتْ أيّامٌ سبعةٌ شهدَ كلٌّ منها التبدُّلَ السريعَ في حالة إدجار لينتون . كنّا نودُّ أن نُخفيَ الأمرَ على كاتي ، لكنهـا ادركته . وجاء يومُ الخميسِ ، فلم تذكرْ شيئاً عن نزهتِها للقاء لينتون . لكنّني طلبتُ إلى والدِها أن يأذنَ لها بتلكَ النزهةِ فاستجابَ لسؤالي

كان « لينتون » يشبهُ سيّدي في الشكلِ ، ولذلك كان يعتقدُ سيّدي أنه لا بدّ من أن يُشبهَه في التفكيرِ ؛ غيرَ أن رسائل لينتون ، التي يبدو أن هيثكليف كان يُشرفُ على إعدادِها ، لم تكن تُعطي ملامحَ شخصيّتِه الحقيقيّةَ . ولم أعملْ على تغييرِ فكرةِ سيّدي إذ لا فائدةَ تُرجى من إزعاجه ، في ايامِه الاخيرة ، بمثلِ هذه المعلومات .

انطلقنا ما بعدَ الظهرِ وقلبُ سيّدتي الصغيرُ يتَفطّرُ حزناً . وكان لينتون بانتظارنا في المكان السابقِ نفسِه ، فاستقبلَنا هذه المرة بمزيدٍ من الحيويّةِ المشوبةِ بالخوفِ ، وقال لسيّدتي : « لقد تأخرتِ وكنتُ أحسبُك لن تجيئي . هل اشتدتْ وطأةُ المرضِ على والدك ؟ »

فأجابته بقولها : « إن والدي مريضٌ جداً .. لِمَ لمْ تبعثْ إليّ برسولٍ لتحلّني من وعدي بلقائك إذا كنتَ لا تريد حضوري؟ إني أطلبُ منكَ تعليلاً لهذا ، فلا مجالَ الآنَ للمزاح والتذرُّع بالحجـج » .

ارتجفَ لينتون ونظرَ إليها نظرةَ خجلٍ ثُمّ قال بصوت منخفض : « أرجوكِ ألا تغضبي يا كاتي ... إحتقريني كيفما شئتِ فإنّي جبانٌ وتافهٌ ، ولكنّني أضعفُ من أن أتحمّلَ غضبك .. إكرهي والدي واستثنيني من ذلك » .

فصرختْ كاتي منفعلةً : « هذا هراء . إنّه يرتجف كأني سألمُسه .. إبتعدْ عني ولا تمسكْ بطرفِ ثوبي » .

بكى لينتون وهو مُلقىً على الأرضِ وقالَ والفزعُ يتملّكُه : « لست أقدرُ على الاحتمال .. إنني أخدعُكِ يا كاتي ولكنّني لا أجرؤُ على إخبارِك بكيفيّةِ ذلك .. إنّ حياتي بينَ يديك . لقد قلتِ إنّكِ تحبّينني ، فلعلّكِ توافقين ، ويتركني والدُك أموتُ معـك » .

فسألَتْه كاترين : « على أيّ شيءٍ تريدُني أن أوافق ؟ أَعلى البقاء ؟ ما معنى كلامِك ؟ هل تتركُ أحداً يؤذيني إنْ كنتَ تستطيعُ منْعَـه ؟ »

فصرخَ بصعوبةٍ بالغةٍ : « لكنّ أبي هدّدني .. إنّي لا أجرؤ على اخبارِك بشيء » .

قالت له بشفقةٍ مشوبة بالازدراء : « اذاً احتفظْ بسرّكَ لنفسِك . أنجُ بنفسِكَ . فأنا لستُ خائفة » .

رأيتُ عند ذلك هيثكليف يدنومنّا بلطفٍ ويقولُ : « كيف حالُ مَنْ في « ثراشكروس جرانج » ؟ يقولونَ إن سيّدكِ على فراشِ الموتِ وقد يكونُ هذا غيرَ صحيح » .

فأجبته « بل هو صحيح .. إن سيّدي يموت » .

ثم سألني : « وهل تعتقدينَ أن ذلكَ سيتمُّ بسرعة ؟ »

قلتُ : « لا أدري » .

فقال : « إن هذا الفتى يبدو مُصراً على أن يهزمني ، واني لأكون شاكراً لخالهِ لو أسرعَ وماتَ قبله » .

وقلت : « ينبغي أن يكونَ ابنكَ الآنَ في فراشهِ تحت رعاية طبيب بدلاً من أن يتجولَ في التلال » .

فأمره هيثكليف بالنهوضِ فقال له : « سأنهضُ يا ابي ، ولكنْ دعني وحيداً فقد عملتُ بحسب إرادتك .. ابقي بجانبي يا كاتي وهاتي يدكِ لتساعديني على النهوض » .

فقال له والده : « خذ بيدي أنا وانهض .. إنكِ تظنين يا آنسة كاتي أنني قاسٍ جداً بحيث أثير الرعبَ في صدره . أرجو أن تتلطفي بمرافقته إلى المنزلِ ، فهو يرتجفُ إذا مسستهُ انا » .

فأجابته كاتي بقولها : « لا استطيعُ الذهابَ الى منزلكم ، فقد منعني أبي من ذلك » ، ثم خاطبتْ « لينتون » قائلةً : « إن أباك لن يؤذيكَ فممَّ تخاف ؟ »

وطلب مني هيثكليف أن أرافقَ ابنه إلى المنزل لكنني رفضتُ ذلك قائلةً إنه يجبُ علي أن أُلازم كاتي ، ففهمَ هيثكليف بأن يُمسكَ ابنه ليرافقه إلى البيت لكنَّ الابنَ تمسكَ بـ «كاتي» راجياً إياها أن ترافقه فاستجابتْ له بسببِ يأسه الظاهرِ ، وأوصلته إلى بيته ، وانتظرتُها خارجاً فدفع بي هيثكليف إلى الداخلِ وجعلني أجلس ثم أوصدَ البابَ وقال : « إني أودُّ أن تشاركاني في تناولِ الشاي .. إني أُقدِّم لكِ ما عندي يا آنسة

لينتون مع أن الهديةَ لا تكادُ تستحقُّ القبول ، عنيتُ لينتون . تفضَّلي بالجلوس الى جانبه ! »

تقدَّمتْ كاتي نحو هيثكليف وقالتْ له وعيناها تلتمعان : « لست خائفةً منك . أعطني المفتاحَ فأنا لا اشربُ أوآكلُ شيئاً في هذا المنزلِ ولو كنتُ أتضوَّر جوعاً » ، فنظر اليها هيثكليف متعجباً من جرأتها ، وحاولتِ اختطافَ المفتاحِ من بين اصابعه المرتخية فكادتْ تنجحُ لكنَّه عاد فحالَ دون ذلك وقالَ لها : « إبتعدي يا كاترين لينتون وإلا ألقيتُ بك ارضاً ! »

لم تحفلْ كاتي بتحذيره إياها وحاولتْ ثانيةً أن تختطفَ المفتاحَ فغرزتْ أظافرها بيده وعضَّتها ، فما كان منه ألا أن ضربها عدةَ ضربات على رأسها . وتدخلتُ هنا محاولةً تخليصها لكنَّه دفع بي بقوة إلى الوراءِ فلم أعدْ أقدرُ على الحراك نظراً لبدانتي التي تجعلني سريعةَ الشعور بالإرهاق .

انتهى هذا المشهدُ بعد حوالى دقيقتين ، وكانت كاتي مرتبكة اشدَّ الارتباكِ وقد وضعت يديها على رأسها واتكأت إلى الطاولة وهي ترتجفُ فقال لها الرجل العديم الرحمة : « إنني أعرفُ كيف أنتقم من الأطفال . إذهبي الى جانبِ لينتون وابكي . بعد ايامٍ سأكون اباك وسوف تقاسين مني الكثير » .

اندفعت كاتي اليَّ ووضعتْ رأسها في حضني باكيةً . اما « لينتون » فكان قابعاً في إحدى الزوايا وكأنه فأر .. ولعله كان مسروراً لأنَّ العقابَ وقعَ على شخص غيره .

ثم نهض هيثكليف وحضَّر الشايَ وناولني قدحاً منه وهو

يقول : « هدّئي غضبكِ وساعدي مدلّلتك الصغيرةَ ، وسأبحث أنا عن جواديكما » .

ولما انطلقَ هيثكليف أسرعنا للبحث عن منفذٍ للخروج فسألنا « لينتون » ليدلّنا عليه فقال : « إنني عطشان .. أعطياني قدحاً من الشاي وسأخبركما » ، لكنه رفضَ شربَ الشاي ، لأنّ دموعَ كاتي سقطت في القدحِ فأعطته « كاتي » قدحاً آخر . وقد بدا لي ان لينتون استرجع هدوءه حالَ دخولِه الى المنزلِ . فاستنتجتُ أنّ والدَه كان قد هدّده بعقابٍ شنيعٍ لو أنّه اخفقَ في حملنا على دخولِ المنزل .

قال لينتون : « إن أبي يريدُنا زوجيْن . وهو يخافُ الانتظار لئلا أموتَ ، ولذلكَ علينا أنْ نتزوّجَ غداً ، وسوفَ تنامينَ الليلةَ هنـا » .

فصرختُ متعجبةً : « أأنتَ سوف تتزوّجُها ؟ أتتخيّلُ أنّ فتاةً جميلةً ومعافاةً ونشيطةً مثلَها تقبلُ بقردٍ مثلك زوجاً ؟ » أمّا كاتي فقالتْ : « وهلْ سأظلُّ هنا الليلةً بطولِها .. إنني سأحرقُ هذا البابَ وأخرجُ من هنا » .

وتحرّكَ حبُّ الذاتِ في لينتون فقال : « هل تتركيني وحدي وترحلين ؛ يجبُ أن تطيعي والدي » . فأجابته كاتي : « يجب أن أُطيع والدي وأوفّر عليه القلقَ من أجلي .. أمّا أنتَ فلستَ في خطـر » .

في ذلك الوقتِ رجع هيثكليف وأخبرنا أنّه لم يعثرُ على جواديْنا ، ثم أمرَ ابنَهُ بالصعودِ الى غرفته . أمّا كاتي فراحت

تنظرُ إلى هيثكليف نظراتِها الطفوليّةَ فأخذَ يقول : « أنتِ لستِ خائفةً ؟ يبدو أنّكِ تُخفين شجاعتَكِ » .

فأجابتْه : « الآنَ أصبحتُ خائفةً لانّ أبي سيكونُ تعيساً جداً إذا بقيتُ هنا الليلة . دعني أرحل يا سيّدَ هيثكليف وإني أعدُكَ بأن أتزوّجَ لينتون ، فإن أبي يريدُ ذلك كما أنّني أُحبِ الفتى ، فلِمَ تُجبرُني على شيٍ كنتُ سأقومُ به باختياري » .

فقال « سأستمتعُ كثيراً بجعلِ أبيكِ تعيساً ؛ أمّا عن وعدكِ بالزواجِ بـ« لينتون » فانّكِ لن تغادّري هذا المكانَ قبلَ أن تُنْجـــزِيه » .

اقترحتْ « كاتي » أن يرسلني هيثكليف إلى والدِها ليطمئن بالَه فقال : « سيظنُّ والدُك انّكِ سئمت من العنايةِ به فهربت منه بقصد اللهو ؛ ثم إنّكِ لا تستطيعينَ أن تُنكري أنّكِ دخلتِ بيتي بملءِ إرادتك ، مخالفةً أوامرَه .. إبكي ما شئتِ ، فلن أحفلَ بذلك » ، فقالتْ : « لو ظنّ أبي أنني تركتُه عمداً ، ولو ماتَ قبلَ أن أرجع ، فكيفَ أستطيعُ أن أعيش ؟ عند ذلك سأركعُ عند قدميْكَ هنا ، ولن يكونَ في وسعِكَ ألاّ تحفلَ بي وترثي لحـالي » .

دفع هيثكليف بالآنسةِ الصغيرةِ باشمئزاز وهدّدني بأنْ يسجنني وحيدةً في إحدى الغرفِ إذا تكلمتُ . وبعد قليلٍ سمعنا حركةً خارجَ المنزلِ ؛ فنهض هيثكليف وتكلّمَ مـع القادميْن ثم عادَ إلينا . وكَم كانَ حزنُنا عميقاً عندما أدركنا أنّنا خسرنا فرصةً سانحةً : لقد كان القادمون ثلاثةً من الخدم

أرسلهم السيد ادجار ليبحثوا عنا .

لم نستطع أن نقاوم البكاء لكل ما حدث ، كما أن أعيننا لم تغمض لحظة طوال الليلة . وفي الصباح نادى هيثكليف الآنسة كاتي ولم يسمح لي بمرافقتها ، وأقفل باب الغرفة .

وبعد ساعتين او ثلاث جاءني « هيرتون » حاملاً لي طعاماً يكفيني طوال اليوم . وحاولت أن أتكلم مع هيرتون لكنه رفض ذلك بعنف وخرج .

قضيت خمسة أيام واربع ليال وحيدة في تلك الغرفة ، لا أرى إلا هيرتون مرة عند كل صباح ، ولم يكن يعير اهتماماً لمحاولاتي تحريك شفقته .

(٢٨)

في اليوم الخامس دخلت « زيلا » الغرفة التي سجنت فيها وقالت لي : « يا عزيزتي ، إن الناس يتحدثون بشأنك في جيمرتون ، وقد كنت أظن أنك غرقت مع سيدتك الصغيرة في أحد المستنقعات ، حتى أخبرني سيدي أنه تم العثور عليكما وأنه أنزلكما هذا البيت . كيف حالك ؟ هل انقذك سيدي فعلاً ؟ »

أجبتها بقولي : « إن سيدك وغد حقاً » .

فقالت : « وماذا تعنين ؟ هو لم يختلق الرواية ؛ إنهم يتحدثون بأمرها في القرية . لقد أمرني سيدي بأن أفتح باب

غرفتك وأطلب منك الذهاب حالاً إلى « ثراشكروس جرانج » وأن تبلغي أهل المنزل أن كاتي ستلحق بك في الوقت المناسب لتحضر جنازة سيدك » .

فصرخت بدهشة : « وهل مات سيدي ؟ »

قالت : « لا .. لا .. صادفت الطبيب في طريقي وسألته عنه فقال إنه قد يعيش يوماً آخر . »

أسرعت في الخروج من الغرفة متوجهة الى منزل سيدي ولما رأيت لينتون في الطابق السفلي سألته : « أين الآنسة كاتي؟ هل رحلت ؟ » فأجابني : « لا ... إنها في الطابق العلوي ولن ندعها ترحل » .

قلت له بسخرية : « لن تدعها ترحل !! أسرع بإرشادي الى غرفتها » .

فقال : « أبي يقول إنه يجب علي الا اكون ليناً معها . إنها زوجتي ومن المخجل أن ترغب في تركي . إنه يقول إنها تريدني أن أموت لكي ترث أموالي ، لكن ذلك لن يكون لها .. فلتبك ما شاءت البكاء » .

أخذت أذكر لينتون بعطف « كاتي » عليه في الشتاء المنصرم لما كان يقول إنه يحبها ولما كانت تحضر له الكتب وتنشد له الاغنيات وتأتي لزيارته على الرغم من سوء احوال الجو ، قلت : «أبعد هذا كله تصدق ادعاءات ابيك وتنضم إليه ضدها ؟ »

فقال بغضب : « أنا لا أقدر أن أبقى معها فهي تبكي وتئن طوال الوقت ، فلا أستطيع أن أنام » .

ثم سألتُه : « هل خرج والدُك ؟ »

فأجابني « إنَّه في فناءِ الدار يتحدَّثُ إلى الطبيبِ ، وهو يقولُ إنَّ خالي على فراشِ الموت . إنني سعيدٌ لأنني سأصبحُ سيِّدَ « ثراشكروس جرانج » من بعدِه ، وقد كانتْ « كاتي » دائماً تقول عنه إنّه بيتُها .. إنه بيتي ، وأبي يقولُ إن كلَّ ما تملكُه أصبحَ لي أنا . لقد عرضتْ عليَّ كتبَها وطيورها وجوادها مقابل إعطائي إيّاها مفتاح الغرفة ، لكنني قلت لها إنها لا تملك شيئاً حتى تعطيني إياه ... إن كلَّ شيءٍ لي وحدي ؛ أخذتْ تبكي وأخرجتْ من عنقها صورةَ أمها وأبيها على جانبي إطار من الذهبِ فقلتُ لها إن هذه ايضاً لي ، وحاولتُ أخذها لكنّها دفعت ابي الى الوراء ، ثم جاء أبي فخافتْ منه وأعطتني صورة أُمها وحاولتْ أن تُخفيَ الصورةَ الأخرى لكنَّ أبي أخذ الصورةَ وداسَ عليها برجِله وطرح كاتي أرضاً ... وبعد ذلك لم تعدْ تكلّمني ، ربما بسببِ الألمِ الذي أصابها » .

قلت له : « وهل تستطيع أن تأتيَني بالمفتاح ؟ »

قال ، « نعم ، لكنَّه في الطابقِ العلوي وأنا لا استطيع أن أمشيَ إلى هناك .. » .

ورفضَ أن يخبرني بمكان المفتاح ، فقررتُ أن أغادرَ المنزلَ قبلَ وصولِ هيثكليف وأن أسعى للمجيء بنجدة من « ثراشكروس جرانج » لإنقاذ كاتي .

فرح العمّالُ في « ثراشكروس جرانج » لما علموا بسلامتي وسلامةِ كاتي ، وانطلقتُ مُسرعةً الى غرفةِ سيِّدي . لقد

تغيَّرت معالمه تغيُّراً كبيراً خلالَ الأيام القليلةِ الماضية . وأخذَ يتمتمُ باسمِ كاتي ، فقلتُ له : « إنها قادمةٌ يا سيِّدي العزيز .. إنَّها على قيدِ الحياةِ وصحتُها جيِّدةٌ ، وآملُ أن تأتيَ الليلةَ إلى هنـا » .

ثم قصصتُ عليه ما حدثَ لنا ولكنَّني لم أُمعن في الحديثِ عن موقفِ لينتون أو عن قساوةِ والدِه . ولم يكنْ سيِّدي يعلمُ بأنَّ وطأةَ المرض كانتْ شديدةً على لينتون ، ولذلك لم يفهمْ استعجالَ هيثكليف في زواج ابنه بـ« كاتي » ، لكن سيِّدي كان يعرفُ أن عدوَّه يحاولُ وضعَ اليدِ على امواله وأرضِه وبيتِه . وقرَّر السيِّدُ إدجار ألا يُسلِّم كاتي الأموال التي جمعها لها وأن يودِعَها مع أشخاصٍ مسؤولينَ ينفقونَها عليها ، وعلى أولادِها من بعدِها . وهذه الطريقةُ كفيلةٌ بعدمِ انتقالِ هذهِ الأموالِ إلى هيثكليف إذا مات ابنُه قبله

* * *

أرسلتُ رجلاً ليُحضِرَ المحامي ، وأربعةً آخرينَ ليسترجعوا « كاتي » من « مرتفعات وذرنج » .. كان المحامي منهمكاً ببعضِ الأشغال ووعدَ بالحضورِ في اليومِ التالي . أما الرجالُ الأربعةُ الآخرونَ فرجعوا يقولونَ إن كاتي مريضةٌ ولا تستطيعُ مغادرةَ المرتفعات ، فوبَّختُهم لانطلاءِ هذه الحيلة عليهم وقررتُ أن أذهبَ بنفسي لإحضارِها عند الفجر ، غيرَ أنَّ كاتي قدمتْ بنفسها في الثالثة صباحاً ووفَّرتْ عليَّ مشقَّةَ الذهابِ إليها .

اندفعتْ كاتي إليَّ وأحاطتْ عُنقي بذراعيْها وهي تبكي وتقول: « نيللي ، نيللي .. أما زالَ أبي على قيدِ الحياة ؟ » ثمَّ هُرِعتْ إلى غرفةِ والدِها ، ودخلتُ انا الغرفةَ بعد ربعِ ساعة . لقد كانت خيبةُ أملها بمقدار فرحة أبيها : لقد ماتَ وهـو يُقَبِّلُ وجنتيهـا .

وتمَّ دفن السيِّد إدجار لينتون بجانبِ ضريحِ زوجته .

(٢٩)

جلستُ مع كاتي في المنزل مساء يومَ الجنازة . وأخبرتني كيف استطاعتْ أن تُقنعَ لينتون بمساعدتـها على الهرب . وبينما كُنّا نفكـر بأن يُسمحَ لها بالإقامة في « ثراشكروس جرانج » — في حياةِ لينتون على الأقلَّ — وأن ينْضمَّ إليْها هنا ، وأبقى أنا لتدبيرِ المنزل ، إذا بنا نجدُ أحدَ الخدمِ يُسرعُ نحونا ليُخبرَنا أن هيثكليف قد جاء وهو يعبرُ فِناءَ المنزل .

لم يكلِّفْ هيثكليف نفسَه عناءَ طلبِ الأذنِ في الدخول ، فقد أصبحَ سيِّد البيت . وحاولتْ كاتي أن تتركَ الغُرفةَ لكنَّه أمسك بذراعـها وقال : « لن تهربي منّي بعد اليوم ، فلقد جئتُ لأنقلكِ إلى « مرتفعات وذرنج » ، وعليكِ أن تكوني مُطيعةً وألا تُشجِّعي ابني على مزيدٍ من العصيانِ ، فقد نال عقابَه بسببِ عصيانه » .

وتوسلتُ إليه لتبقى كاتي في هذا المنزلِ ولينضمَّ اليها لينتون

فقال : « إنّني أبحثُ عن مُستأجرٍ لهذا البيتِ كما أنّني أُريدُ أن يكونَ أولادي بجانبي .. ثم إنَّ هذه الفتاةَ ستتوجّبُ عليهـا خدماتٌ لقاءَ الطعامِ والمسكنِ ، فلن أجعلَها تستمرُّ في حياةِ الترفِ والكسل » .

وقالتْ له كاتي : « سأذهبُ معك .. إن لينتون هو كل ما عليَّ أن أُحبَّه في هذا العالم ؛ وقد فشلتْ كلُّ محاولاتِك لجعلِ واحد نا يكره الآخر » .

أجابها : « لست أنا الذي سيجعله يكرهك ، فهو سيكرهك من تلقاء نفسه ، وقد أخبرني بما كان سيفعلُ بكِ لو كانَ أقوى مما هو عليه الآنَ » .

قالتْ كاتي : « إنّني اعلم أنَّ طبعَهُ سيءٌ ، فهو ولدُك ، لكنني سعيدةٌ بأنني سأصفحُ عنه وأنا أعلمُ أنّه يحبُّني ، ولذلك فانني أُحبُّه . أما انت فلا أحدَ يحبُّكَ مطلقاً يا سيد هيثكليف.. إنّك تعيسٌ وبائسٌ ، أليس كذلك ؟ »

فهدّدها بقوله : « سأجعلك تندمين إذا بقيتِ هنا دقيقةً أخرى .. أسرِعي بإحضارِ أمتعتك ! » .

ولما خرجت كاتي توسّلتُ إليه أن يوظّفني في المرتفعات بدلاً من « زيلا » لكنّه رفضَ ذلكَ وطلبَ مني أن أسكت .

ثم أخذ ينظر بإمعان إلى صورة السيِّدة لينتون وقال : « سآخذُ هذه الصورةَ إلى المرتفعات ليسَ لأنني في حاجة إليها ولكن ... » ثم استدارَ باتِّجاه المُستوقَد وتابعَ حديثَه وهو يبتسمُ ابتسامةً غريبةً : « سأخبرُك بما فعلتُ أمس . لقد جعلتُ

الرجلَ الذي كان يحفرُ قبرَ إدجار لينتون يفتح قبرَ كاترين لأرى وجهَها . وهو لا يزالُ على حالِه . وأخبرني الرجلُ أن وجْهَها سيتغيّرُ إذا هبّت الريحُ عليه فنزعتُ عند ذلك المساميرَ من جانبٍ واحدٍ من التابوتِ وأعدتُ الغطاء .. وأوصيتُ حفّارَ القبورِ أنْ يجعلَ تابوتي فاصلاً بين تابوتيهما عندما أُدفن هناك . »

فهتفتُ قائلةً : « إن هذا خبثٌ منكَ .. ألا تخجلُ من إقلاق راحة الموتى ؟ »

فأجابني : « انا لم اقلقْ راحةَ أحدٍ بل هي التي تقلقُني ، ليلَ نهارَ ، منذُ ثماني عشرةَ سنةً ، دونَ أن ترحَمني ... أما الليلةَ الماضيةَ فشعرتُ بالارتياحِ ، فقد حلمتُ أنّني أرقدُ الى جانبِها وقلبي صامتٌ وجنتي الباردةُ تلامس وجنتَها » .

وتابع يقول : « إنّكِ تعلمين بما قاسيتُ بعد موتِها ، وقد كنتُ أُصلّي دائماً لترجعَ إليَّ ، اعني روحها . إن عندي إيماناً قوياً بالاشباحِ ، فأنا مقتنعٌ بوجودِ هذهِ الأشباحِ بيننا — وليلة دفنِها ذهبتُ إلى قبرِها وكان البردُ قارساً . أخذتُ أحفرُ في الترابِ ولمّا وصلتُ إلى قبرِها وهممتُ بفتحِه شعرتُ أنني أسمعُ تنهّداً من شخصٍ عندَ حافّةِ القبرِ ، وكأنني شعرتُ بدفءِ أنفاسِها . كنتُ أعلمُ أنّه لا يوجدُ شخصٌ من لحمٍ ودمٍ بقربي ، لكنني كنتُ متأكّداً ان كاتي كانت بجانبي ، لا في التابـوت .

« شعرتُ بارتياحٍ شديدٍ لوجودِها معي ، ثم ردمتُ الحفرةَ

وقادني شعوري إلى المنزلِ وكنتُ متأكّداً من أنني سأراها ولما وصلتُ إلى المنزلِ حاولَ هندلي وزوجي أن يمنعاني من الدخولِ لكنني تخلّصتُ منهما وصعدتُ إلى غرفتي ونظرتُ من حولي وشعرتُ أنّها بجانبي ، وكِدتُ أراها غيرَ أنني لم أتمكّن من ذلك .

« ومنذ ذلك الوقتِ قاسيتُ عذاباً أليماً . كنت أتوقّع أن أصادفَها في كلِّ حركةٍ أقومُ بها ، وكنتُ واثقاً من وجودها في المنزل . ولما كنتُ أنامُ في غرفتِها كنتُ أحسُّ بوجودِها حالما أُغمض عينيَّ ؛ وكم من مرّةٍ خابتْ آمالي بعد أن أفتحَ عينيَّ فلا أرى لها اثراً .. أمّا الآنَ فقد استرحتُ نوعاً ما بعد أن رأيتُها . لقد كانت طريقتُها في قتلي غريبةً : ثماني عشرةَ سنةً وهي تلوحُ أمامي مع شبحٍ هزيلٍ من الأمل » .

توقّفَ السيّدُ هيثكليف عن الكلام ومسحَ جبهتَه وهو يُحدّقُ إلى النارِ ، ثم نظرَ ثانيةً إلى الصورةِ ووضعَها على الأريكة . ودخلت كاتي تعلنُ استعدادَها للرحيلِ وتطلبُ تهيئةَ جوادِها . وطلبَ منّي هيثكليف أن أرسلَ له الصورةَ في اليومِ التالي وقال لـ « كاتي » إنّه يمكنُها الاستغناء عن حصانِها والانتقالُ مشياً .

ودّعتني كاتي وطلبتْ مني أن أزورها فحذّرني « والدها الجديد » من القيامِ بذلكَ ، ثم أمسكَ بها يستعجلُها المشي



قمتُ يوماً بزيارةِ « مرتفعاتِ وذرنج » وكانت قد مضت مدةٌ طويلةٌ على رحيلِ كاتي غيرَ أن جوزيف لم يسمحْ لي بالدخول مُدَّعياً ان سيِّدَه لم يكنْ في البيت . أما « زيلاّ » فقد أخبرتْني بأنّها لا تحبُّ كاتي لأنها متكبِّرَةٌ وقالتْ : « إن أولَ شيءٍ قامتْ به عدما انتقلتْ إلى هذا المنزلِ لتسكنَ فيه هو الصعودُ الى غُرفةِ لينتون والبقاء فيها حتى الصباح . وبينما كان سيِّدي و « هيرتون » يتناولانِ طعامَ الإفطار دخلتْ عليهما تطلبُ الطبيبَ لمعاينةِ زوجِها فقال لها هيثكليف : إن حياتَهُ لا تساوي شيئاً ، ولن أُنفقَ عليه درهماً واحداً . لا أحدَ هنا يهتم بمصيرِه ! إذا شئتِ أن تعتني به فافعلي ، والا فاقفلي غرفتِه واتركيه ! فأخذتِ السيِّدةُ تبكي . »

وتابعت « زيلاّ » حديثَها فقالتْ : « لستُ أدري كيف استطاعا العيشَ معاً ، فقدكان يئنُّ ويتأوَّهُ ليلَ نهارَ ، ولا تنالُ هي قسطَها من الراحة . وكانت تطلبُ مساعدتي أحياناً ، لكنني كنتُ أخشى مخالفةَ أوامرِ سيِّدي ، على الرغمِ من أنني كنتُ أشفقُ عليها . وفي إحدى الليالي جاءتْ إلى غرفتي وقالت لي بجرأة : « أخبري سيِّدك أن ابنَه يموت .. إنهضي واخبريه في الحالِ ! » ولكنني لم أُخبرْه .

« وبعد قليلِ قرعَ لينتون جرسَ غرفتِه ، فناداني السيِّدُ هيثكليف ليعلم ما الامرُ فأخبرتُه به ، فذهبَ الى غرفتهما حيثُ

Sahar

السيدة دين تطمئن أدغار بعودة ابنه

كانت كاتي تجلسُ على حافَّةِ سريرِ زوجِها المتوفَّى. وسألها هيثكليف عن شعورِها فقالت: «لقد صار في أمان، وصرتُ أنا حُرَّة.. لكنَّكَ جعلتَني أُصارعُ الموتَ معه حتَّى لم أَعدْ أرى أمامي شيئاً غيرَ الموت...» ولازمتْ كاتي فراشَ المرضِ مُدَّةَ أسبوعينِ بعد ذلك».

أخبرتْني «زيلاَّ» أن هيثكليف جاء بوصيَّةِ ابنه ليُطْلِعَ كاتي عليها: لقد أوصى لأبيه بكلِّ ممتلكاته، وبكُلِّ ما كانت تمتلكه هي سابقاً؛ وذلك تحت ضغط والدهِ عليه. ولمَّا كانت كاتي محرومةً من الأصدقاءِ والمالِ فإنها لم تجرؤ على الاعتِراض.

ثمَّ تابعتْ زيلاَّ كلامها: «نزلتْ كاتي من غرفتِها لأوَّلِ مرَّةٍ في يوم من أيَّامِ الآحادِ، وكان السيِّدُ وجوزيف خارجَ المنزلِ. قلتُ لها إن هيرتون يودُّ أن يجلسَ معها وساعدتُ ذلكَ المسكينَ على الظهورِ بالمظهرِ اللائق.. وعند دخولِها وقفتْ عارضةً عليها الجلوسَ في مقعدي. أمَّا هيرتون فقد دعاها إلى الجلوسِ قربَ النارِ، لكنَّها جاءتْ بكرسيٍّ وجلستْ على مسافة منَّا وكأنَّها أميرةٌ بتكبُّرها.

«وبعدَ قليلٍ اكتشفتْ وجودَ بعضِ الكتبِ على أحدِ الرفوفِ، ولكنَّها لم تستطعِ الوصولَ إليها، فساعدَها هيرتون على ذلك بعد تردُّد، فقبِلتْ مُساعدتَهُ دون أن تشكرَه. وظلَّ واقفاً وراءها يُمتِّع نفسَه بالنظرِ إليها وبخاصةٍ إلى شعرِها الحريريّ، ثم مدَّ يدَه وداعبَ خصلاتِ شعرِها فاستدارتْ غاضبةً كأنَّه قد طعنَ عُنقَها بسكِّينٍ وقالت:

«إذهب من هنا!! كيف تجرؤ على لمسي؟ إنّي لا استطيع احتمالك»، فجلس ثُمَّ همسَ إليَّ بعد ذلك يقولُ: «هل لكِ أن تسأليها أن تقرأ لنا؟»، ولما ابلغتها برغبتهِ تجهَّمت عابسةً وقالتْ: «اعلموا جميعاً أنّني لن أَقبلَ منكم أيَّ تظاهرٍ بالعطفِ والرِّقَّة، فلقد ابتعدتم عنّي عندما كنتُ مستعدَّةً لأُضحّيَ بحياتي مقابلَ كلمة حنان رقيقة.. لقد جئتُ إلى هذه الغرفةِ بسببِ البردِ. لا لأُسلِّيَكم أو أتمتَّع بوجودكم».

وانفعل هيرتون بسبب كلامِها وقال: «لكنّي طلبتُ أكثرَ من مرَّةٍ من السيِّد هيثكليف أن يسمحَ لي برعايتكِ خلالَ مرضِ زوجكِ.» فطلبتْ منه أن يكفَّ عن الكلامِ قائلةً إنها تُفضِّل الخروجَ من المنزلِ على سماع صوته الكريه...».

واختتمت زيلاّ كلامها بقولِها: «ومنذ ذلك اليومِ صرتُ أُعاملُها بخشونةِ مثلِ خشونتِها.. ليس بيننا من أحدٍ يحبُّها، فهي لا تستحق ذلك».

بعد سماعي هذه الرّواية قرَّرتُ أن أسكنَ في كوخٍ وأدعو كاتي للعيشِ معي، غير أنَّ هيثكليف لم يكن يسمحُ بذلك مطلقاً.. إنني لا ارى حلاًّ لها في الوقتِ الحاضرِ إلا أن تتزوَّج ثانيـةً.

فاصـــل

يرويه السيد لوكوود

(أيلول ، ١٨٠٢)

بَرئتُ من مرضي وغادرت « ثراشكروس جرانج » راجعاً إلى لندن ، فإنّي لم أعد أُطيقُ حياةَ الوحدةِ والانعزال .

وفي ايلولَ دعاني صديقٌ لزيارتِه في موسمِ الصيدِ ، فلبّيتُ الدعوةَ ولمّا صِرت على بعد خمسةَ عشرَ ميلاً من « ثراشكروس جرانج » ، أحببتُ أن أقضي الليلةَ فيه ، وأُخبِرَ مؤجِّري أنني لا أعتزِمُ البقاءَ في السَّنة القادمة .

وصلتُ إلى منزلِ السيّدِ هيثكليف وتناهى إلى سماعي صوتٌ رقيقٌ يأمُر شخصاً ما بأنَ يقرأ قراءةً جيّدةً ، ثم سمعت صوتَ رجلٍ يقرأ . رأيت كاثي واقفةً وراء هيرتون وهو يقرأ درسَه عليها . وبعد فراغه من القراءة طلب منها أن تكافئه فقبّلته وقبّلها ، وتهيّئا للخروج في نزهةَ .

ذهبتُ إلى بابِ المطبخ ، وكان مفتوحاً ، فصُعقتِ السيّدة « دين » برؤيتي وقالتْ : « لِمَ فكّرتَ في العودة .. إن الجرانج مقفلٌ ؟ » أفهمتُها أنني اعتزِمُ الرحيل في اليوم التالي ، وطلبتُ

منها أن تأمرَ الخدمَ بتحضيرِ المنزلِ ريثما أُنهي مسألة الإيجار فقالتْ إنّها هي ستهتمُّ بهذه القضيّةِ لأن كاثي لم تتعوّد بعدُ تَدَبُّرَ أمورها بنفسها .

أدهشَني حديثُها هذا ، فلاحظتْ دهشتي وقالت : « اذاً أنتَ لم تَعلمْ بموتِ هيثكليف .. » فقلتُ : « هل ماتَ حقاً ؟ متى ذلك ؟ فأجابتني : « منذ أشهرٍ ثلاثةٍ .. سأخبرُكَ بكلِّ شيء . »

القسم الأخير من :

رواية السيدة « نيللي دين »

تقع الحوادث بين : شباط ١٨٠٢ وكانون الثاني ١٨٠٣ م

لمّا دعيتُ للانتقال إلى « مرتفعاتِ وذرنج » لبّيتُ الدّعوةَ بسرورٍ ، ولم يصرّحِ السيّدُ هيثكليف عن سبب تحوّلِ رأيه ، لكنّه قال إنه سئمَ رؤيةِ كاتي ولذلك طلب مني أن أقيمَ في الغرفة التي كانت لـ « لينتون » سابقاً ، وأن تسكنَ كاتي في هذه الغرفةِ معـي .

بدتْ كاتي فرِحةً أوّلَ الامرِ ، لكنّها ما لبثت أن أصيبتْ بالضّجر ، فقد مُنِعتْ من النّزهةِ خارجَ الحديقة ، كما أنّ أعمالي كانت تمنعني من الجلوسِ في المطبخِ بصورةٍ متواصلةٍ ، وأصبحتْ تفضّلُ الجلوسَ في المطبخِ والتشاجرَ مع « جوزيف » على وحدتِها في الغرفة .

وكان هيرتون يتردّدُ على المطبخِ ، ولم تكن تعيرُه اهتماماً باديءَ الأمرِ ، غير أنّها ، بعد مُدّة ، أخذتْ تُبدّل سلوكها نحوَه ولم تعدْ تتركه وشأنَه ، وكانت دائماً تشيرُ الى كسلِه وغبائه وتعجبُ كيف يطيقُ حياتَه . وقالتْ لي مرّةً : « إنـه

شبيهٌ بالكلبِ او بالحصانِ ، فهو يعملُ ويأكلُ وينام » . ثم نظرتْ اليه قائلةً : « الا يمكنُكَ ان تتكلّم معي ؟ »ولما لم يُجِبْها قالت : « إنّي أعرفُ سببَ عدمِ تكلّمِه معي عندما أكون في المطبخ : إنه يخاف أن أسخرَ منه ، فقد سخرتُ منه سابقاً لمّا حاول تعلّمَ القراءةِ ، فغضبَ وأحرق كتبه . » .

ثم نظرتْ اليه وقالتْ : « والآنَ إذا أعطيتُكَ كتاباً ، هل تأخذه مني ؟ » ووضعت كتاباً بين يديه فقذف به بعيداً وصار يهدّدُها ، فقالت إنها ستضعُ الكتابَ في دُرج الطاولة وتذهبُ للنوم . وهمستْ في أذني لاراقبَه وأرى إن كان سيأخذُ الكتاب . فلم يفعل .

ولجأتْ كاتي إلى طريقة أخرى ، فصارتْ تقرأُ لي من بعض الكتبِ اثناءَ وجودِه ، وتكفُّ عن القراءةِ في بعضِ المواضعِ الشائقة وتتركُ الكتابَ مفتوحاً لعلّ هيرتون يتشوّقُ للقراءة ؛ لكنّه ظلّ على عنادِه .

أما « هيثكليف » ، فكان يزدادُ بعداً عن مخالطة الناسِ يوماً بعدَ يوم . كما أنّ هيرتون قد اصيب بجرحٍ في يدِه بسبب طلقٍ ناريٍّ من بندقيّتِه ، فاضطرّ إلى ملازمةِ المنزل بضعةَ ايّامٍ كانتْ تجلس كاتي خلالَها معه بجانبِ المُستوقَد .

ويومَ عيدِ الفصحِ بينما كان جوزيف خارجَ المنزلِ وكنتُ أنا مشغولةً بكيّ الثيابِ ، كانت كاتي ترسمُ بعضَ الصورِ على النوافذ وتنظرُ إلى هيرتون الجالسِ قربَ المدخنة دونَ أن يعيرَها اهتماماً .

سمعتها تقول له : « لقد تبين لي يا هيرتون أنه يسرني أن تكون ابن خالي لولا أن معاملتك لي فظة . » ولما لم يجبها هتفت قائلة : « هيرتون ! ! هيرتون ! ! هل تسمعني ؟ » فقال لها بقساوة : « انصرفي عني ! » .

وتقدمت نحوه بحذر وانتزعت غليونه من فمه فسقط في النار وأخذ يشتمها ، وتناول غليوناً آخر فقالت : « إنك ابن خالي وعندما أقول إنك مغفل لا أقصد أن أحتقرك » .

فأجابها بقوله : « لا شأن لي بك وبتكبرك ، ولن أنظر إليك ثانية .. إنصرفي عني في هذه اللحظة !

تراجعت كاتي إلى النافذة محاولة أن تمنع نفسها من البكاء فقلت له : « يجب أن تكون لطيفاً مع ابنة عمتك لأنها ندمت على تصرفاتها السابقة » . فأجابني : « أتريدين أن أصادقها وهي تكرهني وتحتقرني ؟ » فقالت كاتي : « انا لا اكرهك بل أنت تكرهني ... اكثر مما يكرهني السيد هيثكليف . »

واعترض « هيرتون » على مزاعمها قائلاً : « ليس هذا صحيحاً ، فلقد أغضبته مئة مرة لأدافع عنك ، ثم سخرت مني وازدريتني » .

فأجابته وهي تجفف دموعها : « لم أكن أعلم أنك كنت تدافع عني ، وقد كنت عنيفة مع كل الناس .. أما الآن فإنني أشكرك ، وأتوسل إليك أن تصفح عني » ، وتقدمت نحوه ومدت يدها له فرفض أن يصافحها . وكانت كاتي تعلم أنه يرفض مصافحتها بسبب عناده لا لأنه يكرهها

فطبعت قبلة رقيقة على خده ، ثم جلدت أحد الكتب ولفته بشريط وكتبت عليه الإهداء التالي : « إلى السيد هيرتون أرنشو وطلبت مني أن أعطيه إياه وقالت لي : « أخبريه أنه إذا قبل الكتاب فإنني سأعلمه قراءته ، وإلا فإنني سأصعد إلى غرفتي ولن أزعجه بعد اليوم . »

أبلغته رسالتها وقدمت الكتاب فلم يفرد اصابعه ليتناوله ، فوضعت الكتاب على ركبته وانصرفت . وكانت كاتي تنتظر حتى سمعت صوت نزع غلاف الكتاب فقامت وجلست إلى جانبه وطلبت منه أن يصفح عنها فقال : « ولكنك ستخجلين مني طيلة أيام حياتك ، وانا لا أتحمل هذا الشيء . » فأجابته بقولها : « أنت لن تكون صديقي اذاً ؟ »

نظرت إليهما بعد حين فوجدت وجهين مليئين بالسعادة ينظران في الكتاب .. وأخذت الألفة تنمو بينهما سريعاً ، على الرغم من قلة صبرها في تعليمه ــ فلقد كان تفكيرهما يتجه إلى هدف معين : هو كان يتوق إلى سماع رأي حسن فيه ، وهي كانت تمنحه حنانها وإطراءها .

* * *

في اليوم التالي لعيد الفصح وجدت « كاتي » تقنع ابن خالها بأن يأتيا ببعض النباتات من « ثراشكروس جرانج » لزرعها في الحديقة بعد تخصيص مساحة معينة لها . وصادف أن وقع الاختيار على قطعة من الحديقة كان « جوزيف » يعتني بزراعتها ويعتبرها ثروة خاصة به . ولما نبهت « هيرتون » إلى

ذلكَ قالَ مرتبكاً : « لقد نسيتُ أنّها لجوزيف .. ولكنّني سأخبرُه بأنني انا قمتُ بهذا العمل » .

نصحتُ كاتي ألا تُظهرَ مودّتَها لابنِ خالِها امامَ السيّد هيثكليف تجنُّباً لغضبِه . وعلى الرّغم من أنّها وعدتني بذلك ، فإنّها راحت ، عند تناول الطعام ، تُلقي بالأزهار في صحن هيرتون فلم يستطِـعْ أن يُخفيَ ضحكتَه . وضُغقَ هيثكليف لهذا الأمرِ وقالَ لها : « من حُسْنِ حظّكِ أنّكِ بعيدةٌ عن قبضتي .. لا تنظري إليَّ بهاتين العينين .. لقد ظننتُ أني جعلتُكِ تشفينَ من الضحك » .

وقال هيرتون مُتَمْتِماً : « انا ضحكت » ، فنظر إليه هيثكليف قليلاً ثم تابعَ تناولَ الطعام .

وما كدنا ننتهي من الإفطار حتّى دخل جوزيف وعيناهُ تسطعان بغضب ثائر وأخذ يتفوّه بكلام غـير مفهوم فقال هيثكليف : « هل هذا الأبله ثمل ؟ أيشكو منك أنت يا هيرتون؟»

فأجابه هيرتون بقوله : « لقد خلعتُ بعضَ شجيراته » . ولما سأله هيثكليف عن سببِ خلعها تدخّلتْ كاتي تدخُّلاً حكيماً وقالت : « لقد أردنا أن نزرع بعضَ النباتاتِ ، والملامةُ تقعُ عليَّ وحدي » ، فقال لها :

— « ومن سمح لكِ بأن تلمسي شيئاً في هذا المكان ؟ »

— « لا بأس اذا زرعتُ هذه القطعةَ الصغيرةَ من الارض ، بعد أن أخذتَ كلَّ اراضيَّ . »

— « أراضيكِ ؟ أنت لم تكنْ لكِ أراضٍ قط . »

— « أخذتَ اموالي ايضاً ... وأموالَ هيرتون وارضَه ... لقد أصبحتُ انا وهيرتون صديقينِ الآنَ وسوفَ أُخبرُه بكلِّ شيءٍ عنك . »

نهض هيثكليف وبدا عاجزاً عن الإجابةِ وأخذ ينظرُ إليها نظرةَ كرهٍ لا حدَّ له فقالت : « اذا ضربتَني فان هيرتون سيضربُكَ . » وحاول هيرتون ان يقنعَها بالذهابِ فتابعتْ قائلةً « لن يطيعكَ هيرتون بعدَ اليوم ايُّها الرجلُ الشرِّيرُ ، وسيكرهك بمقدارِ كرهي لك » .

وظل هيرتون يحاولُ إقناعها بالانصرافِ وقال لها : « لن اسمحَ لكِ أن تتكلمي معه بهذه الطريقة » ، فقالت : « ولكنّكَ لن تسمحَ له بأن يضربَني » ، فهمس يقول : « تعاليْ إذن » .

غيرَ أن الاوانَ كان قد فات ، فقد أمسك هيثكليف بشعرِها وكأنّه يريدُ أن يقطّعها إرْباً إرْباً ، فحاولَ هيرتون أن يقنعَه بعدمِ إيذائها هذه المرة . وكنت اتهيأ أنا لمساعدتِها عندما أفلتَ قبضته عنها وقالَ بهدوءٍ مفتعَلٍ : « تعلّمي كيفَ تتجنّبين إغضابي وإلا فانني سأُقدمُ على قتلكِ يوماً ما .. إصعدي إلى غرفتكِ مع السيّدَة دين . أما هيرتون أرنشو فإنني سوفَ أطردُه إذا رأيتُه يطيعُكَ . إنَّ حبَّكِ سيجعلُه متسوّلاً شريداً . أُتركوني كلُّكم ! »

طلبتُ من كاتي أن تتناولَ طعامَ الغداء في غرفتِها ، لكن هيثكليف أرسلني أستدعيها . وبعد الفراغِ من تناولِ الطعامِ مُباشرةً . خرج هيثكليف قائلاً إنّه لن يعودَ قبل حلولِ المساء .

أرادت كاتي ، خلال غيابه ، أن تُخبرَ ابن خالِها بمعاملة هيثكليف لوالده ، غير أنّه رفضَ سماعَ ما تقولُ ، قائلاً إنّه لا يتحمّلُ سماعَ كلمة واحدة ضدّ هيثكليف ؛ ولما غضبتْ كاتي لهذا سألها كيف كانتْ تشعرُ لو أنّه تكلّم عن أبيها فأدركتْ أنّ هيرتون كان مرتبطاً بـ « هيثكليف » ارتباطاً قوياً ، وأنّه تعوّد على هذا الارتباط بحيث يصعبُ عليه التخلّي عنه . ولا أظنُّ انها قالتْ له كلمةً واحدةً عن هيثكليف بعد ذلك .

بعد انقضاء هذا الخلافِ البسيط ، عادا صديقيْنِ وعادت تشغلهما علاقةُ المعلّمة بتلميذها . وكنتُ أجلسُ معهما وأشعرُ أنهما ولداي . لقد أصبحتُ واثقةً من أنّ نزاهةَ هيرتون وذكاءه سيزيلان عنه أثرَ الجهلِ الذي نشأ في أحضانه . وكان تشجيعُ كاتي له يدفعُه صوبَ الأفضل ، بحيثُ صار يصعبُ التصديقُ أن هيرتون هو نفسُ الشخصِ الذي رأيتُه يومَ كانت كاتي صغيرةً ، وحملتْها نزهتُها إلى المرتفعات .

° ° °

رجع السيِّد « هيثكليف » وكنا لا نزالُ في الغرفةِ ، وأخذَ ينظرُ إلينا وقد أضاء وهجُ النارِ وجْهَيْ كاتي وهيرتون ، فبدت عليهما لهفةُ الأطفال ؛ فعلى الرغمِ من أنّ عُمرَه كان ثلاثاً وعشرينَ سنةً وأنّها كانتْ في الثامنةَ عشرةَ ، كان كلٌّ منهما تنقصُه معرفةُ أشياء كثيرة حتى ينضج .

تطلّعا نحوه سوياً ، وكانتْ عينا كلٍّ منهما تشبهانِ عينيِ الآخرَ : إنّهما عينا كاترين أرنشو تماماً .. ولعل هذا الشبهَ

أزعج السيد هيثكليف فنظر الى هيرتون وأخذ الكتاب منه ونظرَ فيه ثم أعاده إليه . وأشار إلى كاتي بالانصراف ، وتبعها هيرتون . ولما هممتُ بالانصراف استوقفني قائلاً :

— « إنّها نهايةٌ هزيلةٌ تافهةٌ ، أليس كذلك ؟ نهايةٌ سخيفة لكلِّ نضالي وجهادي . لقد وضعتُ كلَّ طاقاتي لتدمير هاتين الاسرتينِ ، ولما أصبح كلُّ شيءٍ جاهزاً أمامي ، فقدتُ الرغبةَ في ذلك . لم ينتصرْ عليَّ اعدائي القدامى ، ولعلَّ هذا الوقتَ هو أنسبُ الأوقاتِ لأنتقمَ لنفسي من ذُرّيّتهِم . إن ذلك بمقدوري ولا أحدَ يستطيع منعي منه ، ولكن ما الفائدة ؟ إنني لا أظْهِرُ سخاءً ، ولكنّي فقدتُ قدرةَ التمتُّعِ بتحطيمهما .

« إنني لم أعد أهتمُّ بحياتي اليوميّةِ ، حتى إنني قد أنسى أن أتناولَ طعامي . وهذانِ الشخصانِ اللذان تركا الغرفةَ منذُ قليلٍ هما الشيئانِ الوحيدانِ اللذان يمثّلان شيئاً متميزاً بالنسبة لي . لن اتكلّم عنها ، ولا أودُّ التفكير بها ، فإن وجودَها يدفعني الى الجنون ، أمّا هو ، فإنّه يحرّكُ فيَّ مشاعرَ مختلفةً .

منذ خمسِ دقائقَ ظهر هيرتون صورةً حيّةً لشبابي . لقد جعلني أشعرُ بأشياء كثيرة مختلفة ، إن شبهَه الكبير بـ « كاترين » الراحلة جعلَه يرتبطُ بها في مخيّلتي ارتباطاً وثيقاً ، لكن هذا ليس الشيءَ الأهمّ لأن الدنيا كلّها بالنسبة لي مجموعةٌ من الأشياء التي تُذكّرني بها . إن مظهرَ هيرتون هو شبحُ حبّي الذي لا يموتُ .. بل شبحُ عذابي وسعادتي وكبريائي ! »

سألته ماذا يعني بشعوره أن شيئاً ما سيتغيّر ، وسألته

إن كان يخافُ الموتَ فقال : « ولِمَ أخافُ الموت ؟ الموتُ لا يخيفني ، كما انّه لا يبعثُ فيَّ الأمل . إن صحّتي الجيدةَ كفيلةٌ بأن أعيش مُدّةً طويلةً ، غير أنّه لا يمكنُ الاستمرارُ على هذه الحال . إن لي أمنيةً واحدةً أتطلّع إلى تحقيقها بكلِّ حواسّي . إنني واثقٌ من أنها ستتحقّق قريباً ... ربّاه .. إنه صراعٌ طويل أرجو أن ينتهي ! »

وبدأت أصدِّق قول جوزيف إن ضميرَ هيثكليف قد حوّل قلبه إلى كتلةٍ من العذاب .

* * *

كان هيثكليف في الأيّامِ القليلةِ التاليةِ يتجنّبُ لقاءنا في مواعيدِ تناولِ الطعام . وفي إحدى الليالي ، بعد أن أوى كلٌّ إلى فراشه ، سمعت وقع اقدامه وهو يتركُ المنزلَ .. ولم يكنْ قد رجع بعدُ في الصباح .

كان الجوُّ صافياً ودافئاً وأصرّت كاتي أن أقومَ بأعمالي في الحديقةِ وحثّتْ هيرتون على الاعتناء بالحديقة ، وراحتْ هي تجمعُ بعض الزهورِ قربَ باب الحديقة ، ثم عادت لتبلغنا أن هيثكليف قد أتى ؛ وقالت والدهشةُ باديةٌ على وجهها : « لقد تكلّم معي طالباً منّي ان أسرِعَ بالرُّجوع . لكنّه قد تغيّر كثيراً فهو يبدو نيّرَ الوجهِ ، بل إنه يطفحُ بالسعادة » .

ووقف هيثكليف قربَ البابِ وظهرتْ في عينيْه التماعةُ سرورٍ فسألتُه إن كان يريدُ تناولَ طعامِ الإفطار ، فأجابني إنه لا يشعرُ بالجـوع .

انضمّ الينا السيِّد هيثكليف وقتَ الغداء ، وكان يهمُّ بتناول الطعام ، لكنّه نظر بلهفةٍ إلى النافذةِ وخرجَ من الغرفةِ ، فتبعه هيرتون إلى الحديقةِ ليسألَه عن سببِ امتناعه عن تناولِ الطعام . ولما رجع قال : « إنّه ليس غضبان .. لقد طلبَ مني أنَ أعودَ إليكِ وتعجّبَ كيف أني أُريد وجود أي شخصٍ غيركِ معي » .

عاد هيثكليف بعد ساعةٍ او اثنتينِ وقد ارتسمَ على شفتيه ما يشبه الابتسامةَ فسألتُه : « هل سمعت أخباراً سارّةً يا سيّد هيثكليف ؟ إنك تبدو متوفّزَ الأعصابِ على غيرِ عادتك » ، فقال : « ومن أينَ تأتيني الاخبارُ السارة ؟ ثم إني أرجوكِ أن تحذّري هيرتون من الاقترابِ مني ، فانني أريد العزلة » .

سألته عما يدعوه إلى هذه العزلة فقال : « سأخبركِ : الليلةَ الماضيةَ كنتُ على حافّةِ الجحيم والعذابِ ، واليومَ أشعرُ أنّني على بُعد ثلاثِ خطُواتٍ من جنّتي .. والأفضل أن تنصرفي الآن » .

انصرفتُ وحيرتي في ازدياد ، ولم يغادرْ السيِّد هيثكليف البيتَ ثانيةً ذلك اليومَ ، وفي الساعةِ الثامنة حملتُ طعامَ العشاءِ إليه وكان يتكيء على حافّة نافذةٍ مفتوحة ، وكانت النارُ قد خمدت في المستوقد ، فأخذتُ أقفلُ النوافذ ، ولما وصلتُ إلى النافذةِ التي يقفُ بجوارها استأذنتُه في إغلاقِها ونظرت الى عينيْه وابتسامته وشحوبه ، وكأني لمحتُ في وجهه شبحاً شريراً . ولشدّةِ هلعي سقطتِ الشمعةُ من يدي وغلّفَ الظلامُ الغرفة .

لم يذهبْ سيّدي الى غرفتِه لينامَ ، لكنّه دخلَ تلك الغرفة

التي تحوي الخزانةَ الخشبيـّة . أما أنا فلم يسهلْ عليَّ النومُ تلكَ الليلةَ ، وكنتُ استرجع في ذاكرتي طبعَ هيثكليف وحياتَه الغريبةَ منذُ عرفتهُ طفلاً ورافقتُ نُموَّه ؛ وتساءلتُ من ايِّ مكان جاء ذلك الرجلُ الطيِّبُ بذلك الطفل الصغير الذي كان سبباً في تحطيم عائلته .

* * *

في صبيحةِ اليومِ التالي هيَّأتُ طاولةَ الطعامِ في الحديقةِ ، وكان هيثكليف يناقش جوزيف في بعضِ أمورِ الزراعةِ ، وظلَّت تعابيرُ اليومِ السابقِ باديةً على مُحيّاه . ثم جلس إلى الطاولةِ وأخذ ينظرُ بلهفةٍ شديدةٍ حبسَ أنفاسه فيها باتّجاه الحائطِ المواجهِ ، فقلتُ له إن الطعام سيبردُ ، فلم ينتبه لي، ومع ذلك كان يبتسم .

قلت له بعد ذلك: « بحقِّ السماء لا تحدِّق هكذا كأنَّكَ ترى مشهداً خارقاً للطبيعة ! » أجابني بقوله: « لا تصرخي هكذا .. هل نحن وحيدان هنا ؟ » اكدّتُ له ذلك، فأعاد النظر الى المكان نفسه . ومهما يكنِ الشيءُ الذي كانَ يديم النظرَ إليه ، فإنّه كان يبعثُ فيه المتعةَ والألمَ معاً . ويبدو أن ذلكَ الشيءَ لم يكن ثابتاً لأنَّ عيني هيثكليف كانتا لا تكفّان عن التحرُّك .

عبثاً حاولتُ أن أُذكِّرَه بطعامه، وبعد مُدّةٍ قام وغادر المنزلَ ولم يعدْ حتى منتصفِ الليلِ حين جلس في غرفةِ الجلوسِ ، فارتديتُ ملابسي ونزلتُ لأراه .

سمعتُ خطواتِه وهو يروح ويجيء، وكان يتمتمُ ببعضِ

الكلمات التي لم أميِّز منها إلا اسم « كاترين » . وكان يتكلَّم بصوتٍ جادٍّ ومنخفضٍ ، كما لو كانَ يحدِّثُ شخصاً ما . ولم أجرؤ على الدُّخولِ فجأةً إلى الغرفةِ ، وقُمت بإحداث أصوات ففتح باب الغُرفةِ قائلاً : « تعاليْ يا نيللي .. هل طلع الصباح ؟ » فقلت إن الساعةَ هي الرابعة ، ثم طلب مني أن أشعلَ النارَ وقال في الصباحِ سأرسلُ في طلب المحامي لاستنيرَ برأيه حول بعض الأمور . لم أكتُب وصيَّتي بعدُ ولا أعرف كيف سأوزِّع تركتي ... ليتني استطيعُ أن أمحوَ أملاكي من على وجهِ الارض ! »

قلت له : « أرى أن تتركَ أمرَ وصيَّتِك في الوقتِ الحاضر . إن امامك متّسعاً من العيشِ لتندمَ فيه على أعمالِكَ الظّالمة ، ثم إن حالتك في الأيّامِ الثلاثةِ الأخيرةِ قد أفقدتْكَ قُوَّتَكَ ، فهل اجيئُكَ بشيء من الطعام ، أم هل تفضِّلُ أن تُخلِد للراحة ؟ »

أجابني يقول: « إنَّكِ كمن يطلبُ من رجلٍ غريقٍ أن يرتاحَ وهو على بُعد ذراعٍ واحدٍ من الشاطىء . عليَّ أن أَصلَ قبل أن ارتاح . دَعينا من المحامي الآن ! اما « أعمالي الظالمة » التي تحدّثتِ عنها ، فانني لم افعلْ شيئاً منها ، ولستُ نادماً على ايِّ شيء . إنني سعيدٌ، ولكنْ ليسَ تماماً .. إن سعادةَ روحي تهلكُ جسدي ،دون أن تصلَ إلى غايتها » .

وهنا قلت له: « سعيدٌ يا سيِّدي ؟ هل تسمح لي باسداءِ شيء من النصحِ إليك؟ » فلما أذن لي قلتُ: « أنتَ تعلمُ أنَّكَ منذُ بلغتَ سنَّ الثالثةَ عشرةَ ، وأنت تحيا حياةً أنانيّةً بعيدةً عن الدين ، فما يضيرك لو أرسلتَ الآنَ في طلبِ كاهنٍ

يرشدُك سواءَ السبيل ، ويساعدُك على تغيير نفسك ؟ »

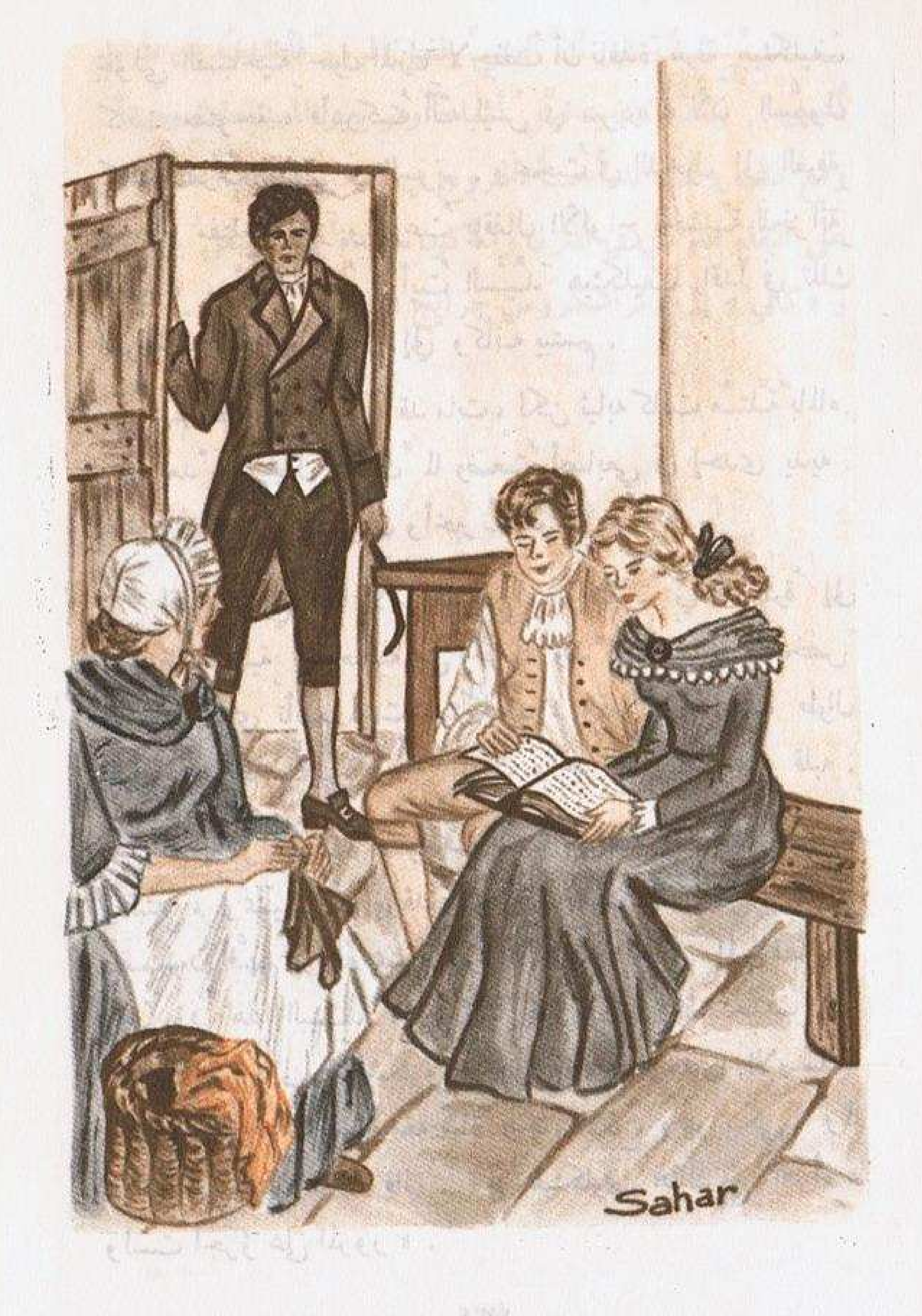
قال : « إنني شاكرٌ لكِ يا نيللي لأنّكِ ذكّرتِني بالطريقة التي أُحِبُّ أن أُدفنَ فيها . يجبُ أن أرقدَ بجانبِها تحتَ الأرض . رافقيني أنتِ وهيرتون ، وتأكّدا من أن حفّار القبورِ ينفّذُ تعليماتي بشأنِ مكان رقودي ؛ ولا حاجة إلى حضورِ كاهنٍ أو تلاوةِ الصلواتِ على قبري . قلتُ لكِ سابقاً : لقد كدتُ أبلغ جنّتي .. »

* * *

كنتُ في المطبخِ بعدَ ظُهرِ ذلك اليومِ ، وجاءني هيثكليف يطلبُ مني أن أجلسَ معه لأنه لا يريد الجلوسَ بمفردِه . رفضتُ ذلكَ بجرأةٍ وقلتُ له إن تصرفاته الغريبة تخيفني ، فقال لي : « لعلّكِ تظنّين أنني روحٌ خبيثةٌ لا تُطاق » ، ثم التفتَ إلى كاتي وقالَ لها بسخرية : « هل لكِ أن تأتي أنتِ معي ، فلن أؤذيك . لقد جعلتُك تكرهينني . إن هناك واحدةً لا ترفضُ صحبتي ! يا الهي .. لا رحمةَ في هذه الفتاةِ عليَّ ... إن هذا اكثرُ من أن يتحمّلَه اللحمُ والدم .. حتى لحمي ودمي أنا » .

دخل هيثكليف غرفتَه عند الغروبِ ، وكنّا نسمعُ تمتماتِه وأنينَه طوالَ الليل . وكان هيرتون يرغبُ في الدخولِ عليه ، لكنني سألتُه أن يحضرَ الطبيب ، فلما جاء الطبيبُ رفض هيثكليف أن يفتحَ له البابَ قائلاً إنّه يشعرُ بالتحسُّنِ ، فانصرف الدكتور « كينيث » .

وفي تلك الليلة هطلت أمطارٌ غزيرةٌ ، ولما كنتُ أقومُ



هيثكليف يرقب الوئام بين كاترين وهاريتون

بجولتي الصباحيّةِ حول المنزل لاحظتُ أن نافذةَ غرفةِ هيثكليف كانت مفتوحة ، فأدركتُ أنّه ليس في سريره ، لأنّ السيُول كانت تغرقُه لو بقي في السرير . ونجحتُ في الدخول إلى الغرفة بواسطةِ مفتاحٍ آخرَ وأسرعتُ بإقفال الألواح الخشبيّة للخزانةِ الكبيرةِ ، ثمّ نظرتُ فرأيتُ السيّدَ هيثكليف راقداً في تلك الغرفةِ وعيناه موجّهتانِ إليّ وكأنّه يبتسم .

لم يخطرْ في بالي أنّه قد مات ، لكن ثيابه كانت مُبتلّةً بالماء . ولم يعدْ من مجالٍ للشكّ لما وضعتُ أصابعي في إحدى يديه . عند ذلك ناديت جوزيف وأخبرتُه بموتِ سيدِه .

لقد صعقني هذا الأمرُ المزعجُ ، وانتقلتْ بي الذاكرةُ إلى الأيّامِ الماضية وما حملته من الحزن . وقد كان هيرتون الشخصَ الوحيدَ الذي تألّم لموتِ هيثكليف ، وقد لازم الجثّة طوال الليلِ . وأخذ يُقبّلُ وجهَ الميْتِ والحرارةُ تنبعثُ من قلبه .

لم يقدر الطبيبُ أن يعرفَ سببَ موته . وتم دفنه حسب رغبتهِ ، وتمنّيتُ أن يرقدَ بسلامٍ ، غيْرَ أنّ أهلَ القريةِ يُقسمون أنّهم يروْنه يمشي قُربَ الكنيسةِ أو في المستنقعات ، وحتّى في هذا البيتِ ، كما يؤكّد جوزيف . ولقد حدثَ أنْ كنتُ ذاهبةً إلى « ثراشكروس جرانج » في إحدى الامسيات الباردة ، فوجدتُ صبياً معه شاةٌ وحَمَلانِ ، وهو يبكي ، ولما سألتُه عن سبب بكائه قال : « إن هيثكليف هناك مع امرأةٍ ، ولست أجرؤ على المرور » .

لم أرَ شيئاً ، غيرَ أنّ الصبيّ رفض المرورَ فأرشدتُه إلى طريق أخرى .. ولعلّه كان يتخيّلُ أشباحاً وهو يعبر المستنقعاتِ وحيداً . ومع ذلك ، لم أعد أُحبُّ الخروجَ في الظلامِ ، ولم أعدْ أجرؤ على البقاء بمفردي في المنزل وسأكون سعيدةً يومَ ينتقلُ هيرتون و « كاتي » إلى « ثراشكروس جرانج » .

الخاتمـة

يرويها السيد لوكوود

أنهت السيِّدةُ «دين» روايتَها وسألتُها: «إذاً هما يريدان الانتقالَ إلى ثراشكروس جرانج ؟» فقالت : «أجل، حالما يتزوَّجان يومَ رأسِ السَّنةِ الجديدة».

ثم سألتها: «ومن سوف يسكن هنا ؟»

فقالت : «سيقيم جوزيف وواحدٌ من الخدمِ في المطبخِ، وسيكونُ باقي البيتِ مقفلاً».

وعقَّبتُ على كلامها بقولي: «وتقيمُ الأشباحُ في سائر اقسام البيت».

قالتْ : «كلا يا سيِّد لوكوود.. إنني أعتقدُ ان الموتى يرقدون بسـلام».

وفي تلك اللحظةِ فُتِحَتْ بوابةُ الحديقة ودخلتْ كاثي مع هيرتون ، فقلتُ للسيِّدة «دين» : «إنهما لا يخافان الآنَ شيئاً». ثم توقَّفا ليُلقيا النظرةَ الأخيرةَ على القمرِ ، بل لينظرَ واحدُهما الى الآخرِ على ضوء القمر ، وشعرتُ برغبـةٍ في

الانصرافِ لأتجنبَّهما ، فودَّعتُ السَّيِّدةَ «دين» وخرجت .

عرجتُ على مقبرةِ الكنيسة وألقيتُ نظرةً على القبورِ الثلاثة : كانت بلاطةُ الضريح الأوَّل مكسوَّةً بالعشبِ، أمـا بلاطةُ ضريحِ إدجار لينتون فكان النباتُ يغطّي أسفلَها، في حينَ كانتْ بلاطةُ ضريحِ هيثكليف عاريَةً من العشب .

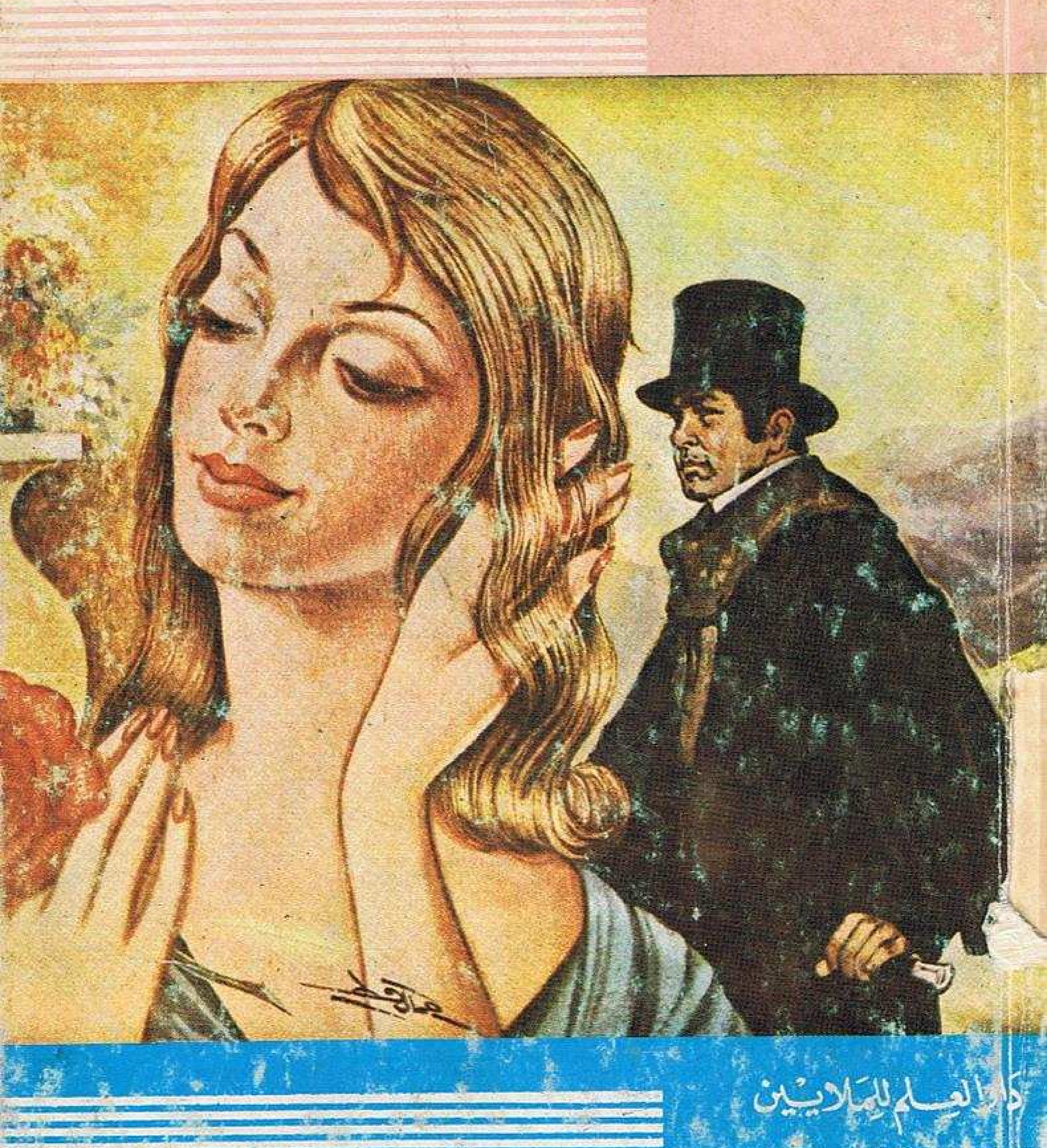
بقيتُ بجانبِهِم أراقبُ الحشراتِ التي تزحفُ على العُشبِ، وأنصتُ إلى أنفاسِ الريحِ المتغلغلة فيه .. وتعجَّبتُ كيف يُمكنُ لأيِّ انسان أن يتخيَّلَ أنَّ هؤلاءِ الراقدينَ في الأرضِ الساكنةِ ، يرقدونَ في قلقٍ واضطراب .

انتهت


مطبعة العلوم
حارة حريك - لبنان

مُرتَفعات وذَرِنغ

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات



دار العلم للملايين
بيروت